عبد الستار ناصر

في قطار السمك

قصص

الكتاب: في قطار السمك (قصص)

الكاتب: عبد الستار ناصر / كاتب عراقي

الطبعة: 2017

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : 35825293 – 35867576 – 35867575

فاكس : 35878373

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منـــه أوتخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشـــكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

ناصر، عبد الستار

في قطار السمك / عبد الستار ناصر – الجيزة –

وكالة الصحافة العربية.

. ص، .. سم.

الترقيم الدولي: **977 –5772 – 53 – 6**

أ – العنوان رقم الإيداع : **5498**

في قطار السمك

الإهداء

إلى عمر، وياسر، وناصر
أجمل ما كتبته طوال حياتي

عبد الستار ناصر

ما يشبه المقدمة

هذه القصص سيئة الحظ مثل كاتبها.

في كل مرة أفكر أن أجمعها في كتاب يحدث لي ما ليس بالحسبان، حتى أيقنت بأنها ستبقى هكذا، دون أي وصي عليها بعد موتي.

ذات مرة، وأنا أقترب من شياطينها حتى أغازلهم بغية ترتيب صفحاتها، أخذوني صباحا إلى المعتقلات، وأمضيت فيه بعض الوقت، وكان الزمن الذي رموني فيها إلى تلك السراديب يكفي لتحطيم ذاكرتي وإهمال قصصي.

وفي المرة الثانية أصابني مرض اللا مبالاة فتركتها خلف ظهري، وذهبت إلى النساء والخمرة والسفر، وصارت العودة إلى قصص لا تعني الكثير أمام الحسناوات في "باريس" أو أمام الخمور في أقبية "مدريد" أو الرقص تحت سقوف "بيروت" و"روما".

ولا أريد الآن شرح بقية ما جرى، يكفيني فرحا وأنا أقدم باقة من الزهور لصديقي خالد محمد غازي الذي غازلني إبداعيا، وطاردني بالمحبة وأرغمني على الرجوع إليها حتى أجمعها ثانية وأطبعها وأنشرها– كما الورد– في طريق قرائي وأحبابي في "بيروت" و"بغداد" و"دمشق" و"عمان" و"القاهرة" وبقية الأصدقاء في عموم الوطن العربي.

تصحيح أنني زدت عليها بعض ما كتبته في السنوات القليلة المنصـــرمة، وقد فعلت ذلك لئلا تبقى هذه القصص "أيضا" وراء ذاكرتي ولن أعثـــر على من يطبعها بعد غيابي.

تطاردني لذة السفر، لم أزل أشتعل لهفة للنساء الجميلات، وأحلم كل يوم بخمور "برشلونة" وحانات "أثينا" وشوارع "مامايا" وسراديب "لندن".

لكن القصة القصيرة ستبقى أو عشيقاتي وأحلى خموري وأكثر أســـفاري سحرا وهياجا ولوعة، وأظنني بعد أن رأيت هذه القصـــص محشـــوة في كتاب واحد، لم أعد سيئ الحظ، وأرى أن القصص نفسها تستحق مني ما فعلته من أجل أن ترى النور.

لكم الرأي الأخير طبعا.

عبد الستار ناصر

جدة 2001

لا بد من مطر

أرجوك أن تقترب، الآن، حتى أعترف بين يديك بما جرى، يمكنك أن تقترب مسافة أطول.. يالهذا "الخوف الذي صار كل شيء حتى بين الأصدقاء.."هذا الطفل أصبح مشهوا"..

كيف؟ الزعماء في العالم من أبرز المشاهير، فماذا يعني هـــذا الصخب كله من أجل طفر في المحلة صار معروفـــا لـــدى القصاب والنجار وباعة الخبز والطرشى؟!

كم تورط حلاق الزقاق في جرح زبائنه طوال تسعة أعوام؟ كم كتـــب العشاق من كلمات الوجد حتى تزوج "واحد" منهم وهو يكس نصـــف أسنانه ندما على فعلته المضحك؟.. لا بد من إعادة ترتيـــب الأرشـــيفن مهما كلف الأمر، ذلك أن الناس في كل زمان ومكان لا يصدقون، مهما كلف الأمر، ذلك أن الناس في كل زمان ومكان لا يصدقون حسابات ما جرى في بحر السنوات التي سبقت "أمنياتهم".. فهذا يكتب عـــن أخطـــر مقامرة في حياته، يوم أن خسر زوجته في حفلة عيد الميلا بعد أن احتسى من الخمرة أكثر من مجموعة مساماته.. قال عند الفجر:

–أراهن بكل ما خسرت على "زوجتي".

تلك هي المسافة بين سلطة الخمرة وطفولة الرجال، هل تراهن على ذلك فعلا؟ الخمرة تصنع الكثير من المعجزات الأرضية فهو يراهن على كل شيء، بما ذلك رأسه!

أرجوك أن تبتعد، الآن، حتى أخبرك بما فعلت.

يمكنك إن شئت أن تبتعد مسافة أطول، حتى أقول ما في نفسي من قهر ورجاء ومرارة، أمثالك ينبعي عليهم النوم مبكرين بعد أول رشفة من الخمر، والدليل أنك خسرت كل شيء دفة واحدة: أموالك، زوجتك، وصوتك القوي الذي دخلت به علينا.. كل شيء مرة واحدة.

–أنا أتمنى الخسارة بنسبة ما أتمتع بالربح.

وتعرف أنك تكذب.. فما من أحد يتمتع بالرحيل إلى الرمال والصحراء والعطش، وليس من أحد يفهم كيف تموت الأصابع على مائدة الليل.. أنت مغرور حقا، فما من أحد يفكر في "المكرونة" إذا جاء "الخروف" المحشي على طبق من فضة.

–المال يأتي ويذهب وأحيانا، يذهب قبل أن يأتي.

بالنسبة لي، النساء يمكنهن انتظارك حتى تربح، بعكس الأصدقاء، إنهم سعداء جدا بخسارتك كل مساء، ذلك يعني أنك سوف تعود إليهم، ومثلهم، محض فقير مفلس لا أحد يعنيه أمرك.. مثلهم تماما.

أخطاء حلوة، واحدة بالشيكولاتة، وثان بالكاكاو، وخطأ ثالث بعطر اليانسون، ليس المهم أن تربح أو تخسر، الخطورة في أنك لن تعود كما كنت أول مرة.. على تلك المائدة الخضراء، أنت السيد في الحب والمشاكسة والمرح، وربما أنت وحدك- بينهم- السد في الحرب والمساومات (نياشيني، أوسمة، جوائز، ابتسامة على الصفحة الثالثة من المجلة) وأنا مازلت- كما ترى- أرجوك أن تقترب، أريد والله أن أعترف بين يديك بما جرى، يمكنك طبعا أن ترفض هذه "الدعوة" الوقحة من مجرد جندي لا يعني أمامك أي شيء .. لكنك يا سيدي ذات يوم، وكنت أرجو أن تسمع ما عندي من كلمات.. أنا لست "دوريان جراي" حتى أتباهى بجمالي، محض جندي عابر في حرب عابر.

-اخرس أيها الولد.. تعال غدا..

ولكن.. "يقول ألآبقون إنهم راجعون وأكثرهم لا يجسر حتى على التعلل بتقواه في خروجه".. أما هكذا تكلم "زاردشت"؟

لكن الوقت يمتد بيني وبينك، الوقت يتشعب، بين قبيح وجميل، وأنا لا أحد لي، ولا أملك ما يساعدني على الوصول إليك ثانية.. أحزنني والله أن يدي أقص مما ظننت، وأنها مهما حاولت، لن تصل إليك حتى تخبرك فورا بما جرى.. يدي أيها العزيز أقصر مما ظننت، لهذا قررت إعادتها إلى جسدي.. ثم رميتها طي ثيابي لئلا تفضحني أمام الناس في المقاهي والشوارع الخلفية والبيوت.

رجل لا أعرفه جاءني ذات ليل وقال لي في مقهى المحلة:

–يبدو أنك لاتدري ولا تعلم ولا تعرف عن نفسك أي شيء .

قلت له: كما ينطق النورس حين يموت:

–لماذا أسمع منك كلاما كهذا؟!

قال "اخرس" ثلاث مرات، ثم ترك المقهى ولم يدفع ثمن الشاي، بينما رحت أسمع من يقول:

–إن الجماهير وحدها من يملك الحق في الدفاع عن حقوقها..

أظنني أوشكت على البكاء، فهذا الرجل قال اخرس ثلاث مرات، وأنا فعلت كما أراد مني، بل عدت إلى بيتي ولم أطلب طعام العشاء خوف أن أسمعه– رابعة– يخرسني بإشارة من أصابعه الخمس.

أشعر أن العالم كله محشو بالطحالب والأشنات والأخطاء، وأنا وحدي مزحوم بالخوف، لا يحق لي أن أصرخ، لا يحق لي أن أنطق بما أريد.. ليس من حق أملكه سوى سيجارة تمر بين أسناني، أرى دخانها "يداعبني" فأرفض ما أرى.. لا بد أن أتذكر اسمي ورقم هويتي، وقبل ذلك نوع دمي ومساماتي وخلايا أعضائي.. ذلك أنني دون ريب: رجل مولود منذ أربعين سنة وما زلت هكذا منذ أربعمائة وثمانين شهرا وتزيد.

قلت اقترب، وأنا أعني– كما ترى– أن تبتعد مسافة أطول، مفضوح أمري، والمسافة بين الحرب وبيني هي ذاتها المسافة بين المالك والمملوك.

–إن النفوس النبيلة تأنف أن تأخذ شيئا بلا بدل.

حريص أنت على ما يقوله "نيتشه" مع أن العالم تغير عشرات المـــرات.. فهل لك اليوم أن تسأل "ما ذا يقرأ الطلبة هذه الأيام؟".. لا أحد يقرأ.. إنهم يطربون أمام شميم الشجرة، وهذا التلميذ الوقح يفهم أن البقاء هنـــا محض رعونة.

أنا بينهم أول الضحايا.. ذلك أن ما جرى ليس نفسه ما حدث بالأمس، والناس في هرج ومرج، الرعب يكتشف أخطاء الروح والجســـد، فمـــا بالك بالكوارث والصواريخ والرعد والطائرات؟".. من العيب أن تعطي نفسك إلى الخمرة وأنت تعلم قبل سواك كم أنت خائف مـــن الصـــرير والشظايا والقنابل والنساء..

نساء من؟

أنا أحكي عن الحرب التي رمت ثقلها فوق بيتي، فمن جاء بالنســـاء إلى حضرة الكلام؟ يا رجل، يا محترم، الحياة مجرد حلم.. دعم من المقـــالات السياسية والأخبار المنوعة وأغنيات السهرة.

–24 سنة حب، ثم انتهت الحكاية في مركز الشرطة، كان آخر ما سمعته منها قولها: "لا حب ولا بطيخ"!

تخيل رجاء.. ماذا تعني تلك المساحة من الزمن؟

24 سنة جنون وأسفار وقطارات وطائرات، 24 عاما بين دمشق وقبرص والقاهرة ولوزان وكازابلانكا ومدريد ولشبونة وبوخارست وروما.. ثم أسمعها– أمام القاضى– تضحك: لا حب ولا بطيخ؟..

فلماذا لا أبتعد، وأنا الوحيد الذي عاش خلف البطيخ، موشوما بالحب كما الأغبياء؟ هل قرأت "سوزو في جزيرة الكتز"؟ تلك القصة التي كتبها المعتوه ابن المعوه قبل ثلاثين سنة؟

في هذا القصة كان "الكلب" هو البطل، ثم صارت البطولة من نصيب الإنسان.. هكذا محض خطأ في الرواية، وعاد الكلب في نهاية القصة "بطلا" للقصة نفسها، إننا نسرق البطولة من الكلاب، فكيف لا نسرق البيوت والمخازن ودكاكين الصاغة ولحوم القصابين، ثم نسرق العواطف من قلوب النسوة ونأخذ الوسائد والخواتم ونحن نبكي على قرية ما أقرها أحد وعلى ضيعة ما أضاعها سوانا وعلى شرف لم نفهم كيف نكتبه بالفصحى!

فاض النهر بما فيه، فاض القلب بما يملك من أوردة ودم وشرايين، فاض كل شيء (والله من وراء القصد).. إننا كما ترى، نحكي عن حقائق مقطوعة الرأس ثم نصرخ بلا خجل:

–أرجوك أن تقترب حتى أعترف بين يديك بما جرى.

يا سيدي، رجاء لحظة واحدة من فضلك، أريد أن أقول: إن هناك نمورا شبعانة ونمورا أكثر شبعا، النمور لا تجوع مطلقا، فهي تعرف مكان

الفريسة مهما كانت المسافة.. والفراشات تموت بعد شهر واحد فقط، أية قسمة "ضيزى" أن يبقى النمر وتموت الفراشة!

في مهرجان الشعر العربي الكبير رأيته يغازلني ولم أكتشف السبب، حتى قال إنه جاءني بمائة دولار، لكنه– معذرة– كان بحاجة إليها في الطريق..و"أطرق أمامي حتى خجلت منه خجله..قلت له: (وماذا بعد؟). أعني ماذا بعد الحرب؟ أعني عفوا ماذا نفعل إذا تكرر القول في رأسي أن "أقترب"؟ ومن يسعترف بين يدي بما جرى؟

لا أحد يهمه الأمر، المشكلة وما فيها أن ما فيها ليس بمشكلة.. هكذا قلت لهم ذات يوم، ولم يصدقني أحد منهم.. ياسادتي، يا أهل التضامن والضمان، المشكلة وما فيها، أن ما فيها ليس بمشكلة.. ها.. ها.. كم أنت ظريف ورائع، لقد أخبرونا كم أنت رائع وظريف، نحن بحاجة إلى حوار (معك).. ومعذرة أننا لم نستطع توفير الأمانة التي كان ينبغي أن تصل إليك، فقد كنا بحاجة إليها عبر هذا الطريق الممتد من عمان إلى بغداد.. ياله من طريق أطول مما اعتقدنا.

مرحبا بك أيها العزيز..

إذاعة "الخريف" ترحب بالكاتب الكبير، وترجو منه..

مهلا، مهلا أنا لم أقرر بعد إجراء حديث لإذاعة الخريف ألا يكفي الخريف الذي نحني فيه؟

انتظروني راجاء حتى يجيء الشتاء.. سيكون "وجهي" أكثر وسامة وأنا تحت المطر.. كلا، كلا لا أريد غير انتظار الشتاء، أنا أعرف نفسي.. أيها السادة ليس من أحد يعرف نفسه أكثر مني.

–سؤال واحد إذا سمحت رجاء.. أنت تنشر القصة القصيرة في بغداد مرة وفي بلد عربي مرة.

قلت لهم، لماذا لا تنشر القصص مرتين، بينما تذاع الأغاني مئات المرات؟.. عفوا، أستاذ، تدري أننا نحبك جدا، لكن أكثر المبدعين مشاكسة للنقاد، فما هو؟..

أرجوك أن ياسيد محترم أنا مشغول فعلا، وأخبرتك أن "الخريف" لا يناسبني، دعك من حوارك هذا حتى يجيء الشتاء..

إنهم "وحدهم" الشهداء، أقرب منا إلى روح الله، قررت الكف عن الكتابة، عساني أرى بعض نفسي في الصمت، ياهذه المملكة الشاسعة، مملكة السجاد وتجار الخردة، لا بد من الصمت عاما أو عامين، ربما أربعة، وها أنا أرجوك أن تقترب حتى أعترف بين يديك بما جرى، يمكنك بالله عليك أن تقترب مني خطوة أو خطوتين، أما تضحك.. ألا يمكنك أن تضحك؟؟

سأفعل ذلك في الشتاء، أخبرتك عشرات المرات أو وجهي – كما أعرفه منذ طفولتي وصباي – يكون أكثر جمالا وأكثر غزلا وأكثر حبا عندما يجيء الشتاء ويهطل المطر.

–يارب، لماذا كف المطر هكذ ولم أعد أرى من أثر لجمالي؟

ثانية معكم آنسايّ سادتي، تليفزيون "الخريف" يرحب بالكاتب الكبير ويرجو منه الليلة العودة مع المشاهدين إلى أيام الطفولة والصبا..

مسبحة في البد، ونظرة صوب السماء..

تحت اليد اليمنى "هكذا تكلم زرادشت".. والكاتب الكبير يبتسم وراء الشاشة، تلك كانت أول مرة يبتسم فيها وهو يقول تحت رحمة الكاميرا:

–لابد من مطر يغسل أيامي، وأياكم، صدقوني، سيكون لقائي معكم أكثر جمالا ونحن تحت زخات المطر.. أليس غريبا أيها المشاهد الكريم: أن الدنيا ماعادت تمطر حتى في الشتاء؟

وانفرطت من بين أصابعه حبات المسبحة، بينما نظرات عينيه ما زالت تتوسل صوب السماء، عساها مرة واحدة تمطر، من أجل عينيه.

اليوم الذي سيرحل فيه البط!

قلت لها: "سأغرق، هذا يكفي، ابتعدي عن رأسي، سأغرق يا حشاشة.. ارحميني، سأموت".

قالت: "أنا أريدك أن تغرق وتمت يا ابن الكلبة".

أرعبني الماء، وأخافني صدى صوتها الذي أبحر بي نحو الموت، لكنني، بأعجوبة، تمكنت من الخلاص، وركضت خوفا من أصابها وهي تقترب مني، تريد أن تمسك بي ثانية حتى أغرق..دام هروبي منها أكثر من خمس سنوات، حتى خطفت، سهوا، في حلمي، ثم رأيتها فعلا بعد عشرة أعوام على تلك الطفولة الحمقاء قرب ذاك النهر الضيق العميق الذي أوشكت أن أغرق فيه ذات صباح.

لم أخف منها، برغم صرامة ملامحها وقوة عينيها، قلت لها (كيف حالك يا حشاشة؟) قالت دون أن تبتسم:

– أنا أحسن منك حالا ومالا أيها الدميم.

لم أتمكن من إخفاء غيظي واستغرابي، كيف يمكن لهذا الكائن الأنثوي الضعيف أن يبقى غاضبا حانقا طوال حياته؟

–ما بك يا حشاشة؟ كنا نمرح قرب النهر، وليس بيننا ما يرغمك على قتلي؟ لماذا تكرهينني سامحك الله؟

لكنها ابتعدت وهي تقول: "لن يذبحك أحد سواي يا ابن الكلبة"!!

هذه الصفة نفسها– بعد عشر سنوات– تأتي مثل أبابيل جمر فوق سحابة ترمي شظاياها على ملكوت الصبا.. لماذا ترمينني (حشاشة) بهذه الشتيمة، وهل تراها تعرف أمي أفضل مني؟!

هذه المرة أنا الذي رحت– طوعا– أمشي خلفها، لفحتني الشمس وأنا أركض تحت وابل من السؤالات، ما هو سر هذه البنت التي– حتى – اسمها يثير القشعريرة في جسدي؟! أخافني خوفي من طفولتها، كيف كانت تمسك شعر رأسي قرب شفي النهر وتصرخ بي:

–أريدك أن تغرق.. عليك أن تغرق الآن.. لابد أن تموت مبكرا يا ابن الكلبة.

لماذا، والحال هكذا منذ طفولتنا، تراني أركض خلفها بي الأحراش والبيوت والأسواق والشوارع الخلفية والأووهام؟ عن أي شيء أبحث وراء هذه البنت (المخبولة)، وهي تنهمر على وجداني وعلى طيبتي مثل حبات المطر؟ تكرهني دونما سبب، وتريد موتي دونما سبب.. وأنا مثل خروف مربوط إليها، أمشي خلفها منكسرا معطوبا دون إرادتي؟!

في منتصف الزقاق الذي هو بيتها التفتت حشاشة، قالت بهدوء:

–توقف هنا أيها الدميم، تكفيك هذه المسافة، لا أريد أن يضربك أهل المحلة.. ينبغي أن تموت على يدي.

ومثل كلب مهذب وقفت ونظرت إلى المسافة التي قطعتها وضحكت من نفسي، هل جئت إلى هنا حتى توفقني"حشاشة" متى شـــاءت؟! شـــعرت بالكلب المهذب يهز ذيله طربا وهو يعاند أسياده ويمشي وراء ظهـــورهم برغم أنهم أوقفون، أهز ذيلي مع حالة من نباح جميل لا يسمعه غيري.

قالت "حشاشة" وهي ترى كلب الطفولة مايزال يقطع الطريق خلفها:

– لا أريدك أن تقتل في هذا اليوم، عش سنة أخرى، وتذكر أنـــك ميت قبل أن تصل الثلاثين.

تجاوزت الأربعين ولم أمت..

رأيت حشاشة تبكي في ضريح (ولي) نسيت اسمه، فقلـــت بـــيني وبـــين عظامي "لقد أصبحنا فوق الأربعين.. أنا وحشاشي، وهذه أول مرة أراها تبكي فيها"؟

لم أعد أخافها، كنت أجلس قبها تحت شفاع ذاك الولي الطاعن بـــالعطور وروائح الصندل والتفاح، قالت وهي تمسك بعض أصابعي:

– هذا يومك الأخير أيها الدميم، وعليك أن تتأهب.

أتضرع إليها:

– نحن في بيت من بيوت الرحمن يا سيدتي.. وهذا الكلام حرام في ضريح هكذا. فأشارت أن أخرج توا، وكانت قد سبقتني.. وعند أول الشـــارع خلف مقام (الولي) الذي نسيت اسمه سمعتها تكرر:

–هذا يومك الأخير يا ابن الكلبة، وما عليك غير أن تستعد له.

أظنني رحت أضحك منها، فهي نفسها من طلبتني إلى حضرة المـــوت في أول الطفولة، وهي التي أرادت أن تذبحني وأنا في العشرين من شـــبابي، وهذ قد مرت سنواتي وأخطائي ملذاتي وخفايا جرائمي واقتربت حثيثـــا نحو الخمسين ولم أمت مجنونا – محض جنون – لكن الحياة نفسها صارت مجرد مستشفى لجيوش المجانين!

***

في طفرة من الزمن، ربما في لحظة من شتاء بارد مخجول، ربما تحت ســـقف من أوهام تشبه الكوابيس، رأيتها تبتعد، كانت "حشاشة" تمشي أســـرع من الطيور والأمطار والرياح، صرخت بها أن تنتظر، قلت لها:

– انتظريني يا حشاشة، أنا لا أكرهك، قولي ما تشائين عني، حسنا، أنـــا متأهب لموتي ونهايتي.. لكن على مهلك يا حشاشـــة، لمـــاذا تكـــرهين طفولتنا؟ قولي أي شيء، لكن تمهلي بالله عليك.

وركضت خلفها مثل طفل أبله، تركض الرياح السود خلـــف ظهـــري، أصرخ بها أن تكف عن سباقها معي، لكنها تعانـــد الطيـــور والأمطـــار والرياح.

فجأة وجدت نفسي وحدي، وحدي دون أنيس ولا شفيع..

وحدي، مثل طفل تائه أبله، لا حشاشة معي، ولا النهر الضيق على أرض مبللة بزخات الحالوب ورذاذ المطر، وربما بدموي أيضا.. ولم أعد أسمع زئير البلبل وزعانف الرعد وهبوب الرياح تهبط فوق جلدي، وأنا أمسك رأسي بيدي، أمسكه بقوة لئلا أصدق نفسي وأنا أسمع من يقول:

–أنت ميت منذ زمان بعيد، ميت مهما دامت معك الحياة، تذكر ذلك يابن الكلب. وكم أسعدني أن ذاك الصوت المبهم الرهيب لم يقل: "يا ابن الكلبة" كما قالت (حشاشة) عبر السنين!

لذلك، ما عاد يهمني أن أموت، الحياة هكذا، دون حشاشة ودون خوف كبير تبدو على جانب من الملل.

من يطرق الباب؟

بدأت– حقا – أخاف الدخول إلى بيتي..

هي أول مرة– منذ ولادتي– أرى فيها جثة أمام عيني، ما إن شـــيعتها إلى مثواها حتى رحت أسأل نفسي عن سر هذا الموت المفاجئ الذي تســـلل إلى منزلي.

الآن وقد أصبحت وحدي، بعد أن فارقتني زوجتي، أخـــذت أمشـــي في ممرات البيت، أبحث عن شبح طاف حولي ثم اختفى في زاوية من زوايـــا بيتي، أعرف أن قلبي– منذ طفولتي– كان قد أوهمني عشرات المـــرات، حتى أسقطني في حب جارف صار من نصيب هذه المـــرأة الـــتي مـــا إن أصبحت زوجتي حتى جرها الموت بعد عام واحد من زواج ملتهب نقي.

في غرفة التشريح كتب الطبيب حالة وفاة غريبة، جسد ســـليم وقلـــب معافى، ليس خدوش على الجلد ولا أثر للضرب أو اعتداء من أي نوع".

كنت إذا أمطرت السماء أجلس قرب نافذة عريضة أفتحها وأصـــغي إلى صوت المطر، أكاد أبكي ذكرياتي، أي حجم يأخذه الإنسان أمام براكين الطبيعة وشلالاتها وعواصفها؟ أي حجم يتمتع به أمام الموت، هذا الشيء الغريب الذي يأتي مثل زوبعة ويمضي مثل بحر أسود؟

أسمع المطر كمن يطرق باب بيتي..

الساعة بعد العاشرة ليلا، ذاكرتي ترفض أن تغفو.. أحتسي الخمرة على نبض المطر الذي راح يغمرني بشيء من فرح سكري غامض.

نعم، هناك من يطرق باب البيت.. مشيت إلى زجاج المطبخ عساني أرى هذا الزائر المخبول الذي جاءني تحت خيمة من البرد والرعد والمطر، قلت بصوت مجروح:

– من الذي يطرق باب الباب؟

لم يكن عند بابي غير كلب مبلل كان يختفي بزاوية من الجدار فتحت باب السور وأعطيته طعاما ثم أخفيته تحت سقف الممر عند حديقة البيت، بعد أن ابتسمت في وجهه كما يفعل البسطاء عندما يوهمون أنفسهم بالطيبة والشفقة.

أغلق الهواء باب البيت، كنت قد نسيت بأني وحدي، وانه لا أحد سوف يفتحها لي..نسيت فعلا موت زوجتي، نظرت إلى الكلب إلى تسبب في هذه الورطة، لكني لم أغضب، كنت خائفا من البرد وما من حل أمامي غير أن أكسر الباب..

الزقاق كانت خاليا من البشر، لا أعرف أي واحد من جيراني، لا أحد يسأل عن أحد في هذا الجزء من المدينة، حبات المطر صارت تضربني وترغمني على كسر الباب، لكني تذكرت فورا باب السطح، إذ يمكن فتحه إذا ما كسرت جزءا من زجاجه السميك عند مكان المفتاح.

تسلق الجدار نمرا جائعا يتربص بفريسة طرية، لا بد من فتح الباب لـــئلا أموت من البرد الذي أوشك أن يقتلني، عندها سمعت نباح الكلب الـــذ أطعمته ودثرته بيدي.. راح يطاردني ويوقظ الرعب في جسدي.

ما إن شعرت بالدفء حتى أغلقت باب السطح- بعد أن رفعت المفتاح- وتركت خلفها المزيد من الخشب والطناجر وأسمال الماضي لئلا يتســـرب الهواء والمطر من فتحة الزجاج المكسور..

سمعت طرقا على باب البيت، هو الكلب اللعين جاء مرة ثانية، نظرة من زجاج المطبخ، لم يكن من أحد خلف الباب، يبـــدو أن رأس (النرمـــادة) مخلوع من طرف واحد وثمة فراغ بين الضلفتين.

فتحت الباب بعد أن أخذت معي المفتاح، إذ تذكرت أن زوجـــتي قـــد رحلت فعلا، ثم طوقت الباب الحديد بكمية مـــن الحجـــارة، ورجعـــت مسرعا إلى فراشي أفكر في هذه الليلة العجيبة.

غطيت رأسي، أكاد أبكي على نفسي، أنا لا أعرف البقاء وحيدا، رائحة الموت تتسرب إلى كل مسامة في جسدي.. لا أحب هذا الصمت، خنجر يدخل صوب جلدي ويمزق أعصابي.

إذا كان المطر الليلة قد أسعدني رغم كل ما جرى، ماذا تراني سأفعل بعد الليلة إذا تم الصمت وهاج بحر الوحشة وماج ضدى؟!

تركت الفراش، رحت أمشي بين غرف البيت، جلست قـــرب المكـــان الذي ماتت فيه زوجتي، بكيت على سنة كات أجمل ســـنوات العمـــر،

احتسيت كأسا من الخمر أخفيت فيها بعض خوفي، عساني أهـــرب مـــن هذه الوحشة التي طاردتني في كل جزء من صحوي.

فتحت نافذة من نوافذ البيب، أنظر منها إلى السماء، إلى السحب الـــتي راحت تبتعد عن بيتي. هدوء ساحر، أخاف هذا الهدوء، كف المطر فجأة، وجاء الصمت عربيدا يتحرش بي.

دارت الغرفة بي، كل شبر في هذا البيت مرت عليه أصابعها، لم أشعر أبدا بالخوف أيام كانت هنان في هذه الغرفة معي، أسمع صوتها يأتي مثل صدى نبوي بعيد.

-بماذا تفكر؟ لا أريدك أن تفكر إلابي وحدي.

لم يكن من أحد يطرق الباب، لم أكن أصغي إلى باب البيت كما أصـــغي إليه الليلة، إنني أسمع كل شيء، القطط والكلاب وآخر حبـــات المطـــرة التي أغرقت البيت.. ما عدت أعرف النوم، أنا خائف مـــن صـــحوي، خائف جدا.

أنتظر الفجر بعشق لم أعشه مطلقا، دبابيس تمشي علـــى لحـــم جلـــدي تتسرب إلى أورديّ وغضاريف جسمي، الستائر إذا تحركت يقشعر قلبي ودمي، ماذا دهاني؟

رحت أتحسس أقفال البيت كلها، لا أريد أن يطرق بابي أو يكسرها أي عفريت من عفاريت الماضي.. ماذا حل بي؟ إني أنتهي مع هذا الصـــمت الداعر. أنتهي مثل قرد في زاوية مهملة في غرفة نـــومي. أريـــد شـــهيقا

يشاركني غرفتي، أريد أن أذبح هذا الصمت وأقطعه بالسكين عليه يصرخ أو يتألم أو يشكو فأسمع صوتا أو أسمع صدى أو لهاثا وزفيرا يشاركني بيتي..

أخذت قطعة لحم أعطيتها إلى الكلب، جرها من يدي ومضت بين أسنانه كمن يجهش فرحا.. رحت أمسح على رأسه بهدوء، ما إن شبع بها حتى صار يمسحح جسمه بساقي وهو يدور حولي.. كان هذا الكلب أسعد مخلوقات الله، وأنا أفتح له باب بيتي.. أعطيته مكانا تحت السلالم.

بدأت أسمع أنفاسه وهو يلهث تحت السلالم.. يلهث في ممرات البيت كلها.. جميل أن يتحرك هذا الكائن في بيتي، أطفأت النور.. غطيت نفسي بهدوء.. وعندها فقط تمكنت من النوم.

ثلاثية الولادة..

(1)

قرع طبول، ورقص، وهلاهل، وزفاف كبير..

إنه الزواج السابع لهذا السيد العنيد، مختار المحلة، على ابنة الحسب والنسب التي هي أصغر منه بأربعين عام..

أبناء وبنات الزقاق يضحكون في السر من الرجل الذي ما أنجب طفلا ولا حجرا..

أنا الوحيد الذي صار ابن هذا الشيخ الذي دخل بيت الكهولة، وما انزوى عن قرع الطبول والرقص وتركرار السباق نحو طفل يحمل اسمه (كنت أحمل اسمه) لكنني لم أزل بعد في عتمة رحمة ساخنة خلف أبواب البركة.. لا أدري إن كنت طفلا أو حجرا، لكنني في طريقي إلى الولادة أسمع قرع طبول ورقص وهلاهل..

لا بد أن مختار المحلة قد تزوج مرة أخرى، من يدري؟، ربما جاء دوري لرؤية الحياة، إذ لا أحد يدري حتى هذه الساعة من أكون؟ قد أنزل طفلا، وقد أهبط حجرا، لكنني أحس نزولي فعلا من تلك العتمة الرحيمة الدافئة.

أنزل بهدوء، بهدوء، بهدوء، وأنتظر رؤية (وجهى) أشم رائحة مخلوقة من اثنين: ذئب وتراب وأنتظر بهدوء جميل.

(2)

يرقصون حتى منتصف الليل على قرع الطبول.. هلاهل تصل إلى بيوت المحلة كلها ما دام "مختارها" العنيد المحبوب قد تزوج من ابنة الحسب والنسب، تلك الصبية التي يكبرها بأربعين سنة.. ربما كانت بنات الزقاق يسخرن في سرهن من هذا الرجل الذي ما أنجب– برغم زيجاته السبع– لا طفلا ولا حجرا!

أظنني الوحيد الذي صرت ابن هذا السيد الكهل الذي تزوج الدنيا وما فيها، أصغي إلى قرع الصنوج وأشعر بالرقص عنيفا وأنا داخل أحشاء دافئة رحيمة.

هل تراهم ينتظرون نزولي إلى أرض الحياة؟ لست أدري أي شيء عما سأرى، بل لا أدري إن كنت طفلا أم حجرا؟

بعد قرع الطبول بشهور لا أعرف كيف أحسبها، نزلت من تلك العتمة الدافئة الحلوة.. نزلت هادئا لا صوت لي، وأنا أشم حولي رائحة ذئب حي ممزوجة بنكهة التراب ورائحته.. لا أعلم أي شيء عن ملامحي، إنني أشعر بهبوطي من الظلمة نحو النور، وأنتظر دون خوف ما سيقال عني، لكنني سمعت الصدي يتكرر، ولم أستطع اكتشاف نوع الصوت، فهو يشبه بكاء طفل حينا، ويشبه أزيز حجارة تضرب الجدران حينا آخر. لهذا أنتظر بهدوء..

لم يكف الرقص ولا الغناء ولا قرع الطبول حتى منتصف الليل.. أسمع الهلاهل ولا أرى أي شيء.. لم أكن أحمل اسما بعد، لذلك أنتظر وأنا أبتسم بهدوء جميل.

(3)

لا قرع طبول ولا زغاريد ولا صنوج، انهمر الفجر على أبناء وبنات الزقاق، كفت البطون عن الرقص وهز الرقاب.. السيد مختار المحلة لا صوت ولا صدى.. ماذا جرى؟!

ليس من أحد يهمه أمري، مع أنني نزلت إلى الدنيا منذ وقت بعيد، أي صوت موجع ذليل يلفني وأنا أراهم يهربون عن المكان الذي سقطت فيه.. أنا الابن الوحيد لهذا الشيخ الذي ما أنجب طفلا قبلي ولا حجرا، هو الذي تزوج سبع من صبايا من أحلى بنات بغداد!

حسنا أنا أنزلت إلى الحياة، وخرجت من تلك الظلمة الرحيمة الدافئة الحلوة، فماذا ينتظرون؟

هل تراني نزلت على شكل "أنثى" أم هبطت بقوة كما تهبط الحجارة؟ أشم رائحة ذئب قريب وغرين بحر بعيد.. لا أدري ماذا عني، ولماذا كفت الطبول فجأة؟ لا أحد يرقص حولي وما شيء أشمه غير رائحة ذئب بعيد جدا وتراب يغطي أنفي.. تراب يغطي رأسي، تراب يغطي جسدي كله، مع أنني مازلت أنتظر بهدوء.. أنام تحت جرم هائل من التراب وأنتظر.

لا أدري أي شيء عن نوع جلدي ولا شكل عظامي ولا حقيقة راسي.. أنتظر بهدوء– كما أنا دائما– بينما عاد الرقص صاخبا وعاد قرع الطبول مرة أخرى..

هذه المرة لم أفعل أي شيء.. هذه المرة غلفني الصمت ولم أفعل أي شيء .. كانت رائحة الذئب قد اختفت، ولم يبق من رائحة تطاردني– طوال حياتي– غير رائحة التراب الجميل.. هادئا جئت إلى هنا..

وهكذا لم أزل، مع أن الرقص والهلاهل وقرع الطبول صار غذائي الوحيد وأنا..أولد من جديد، بهدوء، بهدوء، بهدوء، عل غفلة من أبي مختار المحلة؟

***

ثلاثية الفراق

(1)

أخطو.. يخطو معي، أضحك، يفتح فمه مثلي، وحده الذي توقف فجأة، لكنني تركته ومشيت بسرعة.

تلك كانت أول مرة أفارق فيها ظلي وأنا أدخل المقبر، أقرأ سورة الفاتحة على روح "محسن حيران" صديقي الأثير الذي مات منذ عامين ولم أتمكن من زيارته قبل موت، كنا على غير وفاق في الزمن القصير الذي انصرم من أيامنا، ذلك أنه تزوج المرأة التي طالما تمنيت الاقتران بها..

المهم..

نظرت إلى الكلام المكتوب على الشاهدة الرخامية البيضاء (انتقل إلى جوار ربه إثر حادث مؤسف في اليوم السابع من حزيران).. هل أبكي أم أضحك وأنا أمام قبره الأنيق؟.. ذلك أن السابع من حزيران هو يوم ميلادي أنا.. فكيف تجرأ هذا الصديق أن يموت فيه؟!

عدت إلى بيتي، أخطو بهدوء، عاد يخطو معي.. أبكي صديقي الأثير الذي تركته ورائي يبكي مثلي.. دخلت غرفة نومي وحدي، وأظنه–ظلي– ما يزال ينتظرني عند باب البيت حتى آخر ثانية ليرافقني ويمشي معي ويضحك مثلي.

(2)

يخطو، يخطو معه.. يقفز بعيدا عن كومة من الطين، يقفز خلفه تماما.. يضحك على حكاية بالأمس جرت في مقهى المحلة.. يضحك مثله،

هكذا يظهر الحال على الجدران وفوق إسفلت الشوارع والممرات.. لكنه– فجأة– توقف، بينما مضى "محسن حيران" وعافه عند باب المقبرة..

تلك كانت أول مرة يفارق فيها ظله العنيد بالرغم من شروق الشمس.. يوم أن دخل المقبرة وراح يقرأ "الفاتحة" على صديقه القديم الذي مات منذ عامين ولم يتمكن رد الجميل إليه.. ما كانا أبدا على وفاق مع الزمن المحصور بين حربين، حين تزوج المرأة التي أرادها لنفسه، ذلك الصديق الأثير، لكنه عافه مع أحزانه ردحا من الزمن ولم يسأل عنه.

المهم..

راح ينظر إلى الكلام المرسوم بالضوء الأزرق، المنقوش على شاهدة الرخام المرمية (انتنقل إلى جوار ربه إثر حادث مؤسف في اليوم السابع من حزيران).. وما تمكن أن يبكي، ولم يستطع الضحك أيضا على ما جرى.. إنه يجلس أمام ذاك الرمس الأنيق، يتذكر طبعا أن السابع من حزيران هو يوم ميلاده، مكتوب هناك في دفتر الخدمة العسكرية والأحوال المدنية.. ترى كيف تجرأ هذا العزيز على أن يموت في يوم كهذا؟

عاد إلى منزله العتيق، في تلك المحلة الخربة، يخطو بهدوء كئيب، عاد يخطو معه يبكي صديقه المحب الذي اختفي بين ليلة وضحاها.. يبكي مثله.

لكنه، ما إن دخل غرفة النوم–وحده– حتى رأى (ظله) يدخل نحو فراشه الحزين، تلك كانت أول مرة يشاركه الفراش ويرفض أن يتركه وحيدا دون أنيس.. لذلك راحا سويا يبكيان.

(3)

أخطو– يوم الخميس إلى المقبرة– يخطو معي.. أنظر صـــوب المســـاحات المحشوة بالموتى، ينظر مثلي.. اقتربنا من قبر المرحـــوم "محســـن حـــيران" فجلست أقرأ سورة الفاتحة.. لكنه اكتفى بفتح فمه وغلقه كما أفعل.

كن أدخل جوف القبر، بهذا الكفن الأبيض النظيف.. أما هو فقد ابتسم عند حافة القبر وعاد وحيدا إلى يوم.. الجمعة.. يزورني بصحبة غـــيري، ملتصقا بهم، كما كان يفعل معي طوال حياتي.

ثلاثية الموت

(1)

أنظر إلى..

لا شيء ثمة غير الماء يغطي جسدي، وأنا في زاوية من نهر أو فرع من نهر، لا أعرف أي شيء عما جري سوى أن الماء يتسلل نحو ثيابي ومسامات جلدي، أريد العوم عساني أنقذ نفسي، لكنني منذ طفولتي لم أتعلم.

الماء فوقي، وأنا مركون في جزء من هذا المكان، أقول لنفسي: استيقظ من نومك هذا وتخلص من كابوسك الأبدي، لكن الماء يزداد قسوة، وأنا هناك مركون في جزء من المكان أرى نهاية عمري.. ليس غير لحظة أفتح فيها فمي ليستعمرني الماء دفعة واحدة.. وأموت.

وفجأة، يمتد نحوي طوق نجاة، أمسكه بقوة، بآخر ما بقي في جسدي من رحيق، إذا به يرفعني، يرفعني بسرعة إلى سطح الماء، وما إن رأيت السماء حتى أخذت شهيقا عميقا جدا، أيقظني فورا من أسوأ كابوس مر بي طوال حياتي.

(2)

أنظر إلى..

لا بد أن المكان هو نهر، أو فرع من نهر عميق، كيف ومتى سقطت إلى جوفه؟ لا أتذكر أي شيء، سوى أن الماء يغطي جسدي وثيابي ويضع

أوراق كات معي، صار الماء ينثرها عبير مروره فـــووقي، وأنـــا أريـــد السباحة، عساني أتخلص، لكنني منذ طفولتي لا أعرف العوم.

هل كنت أبكي حياتي وأنا أراها تتهرب من بين أصابعي؟ أجـــل، كنـــت أبكي زمني الذي انتهى في جزء من هذا المكان المخيف فجأة.

رأيتت خرطوما من فولاذ يأتي نحوي.. هناك من جاء لينقـــذني، امســـك الخرطوم بقوة، يا الله، أمسكه بآخر ما عندي من أمل في النجاة، صـــار الخرطوم يأخذني بسرعة.. بسرعة.. وما إن رأيت الطيور تحلق في السماء حتى أخذت شهيقا عميقا جدا أيقظني فورا من أسوأ كابوس مر بي طوال حياتي.

(3)

أنظر إلى..

لا شيء ثمة غير الماء يغطي أيامي، وأنا أقبع في زاوية من زوايـــا نهـــر أو فرع من نهر عميق.. لا أتذكر كيف وصلت إلى هنا ومتى كـــان ذلـــك؟ الماء يتسلل في كل جزء من فراغاتي وثيابي.. أحاول العوم عساني أتخلص من هذا الموت الجاث فوقي، لكن الماء يزداد قسوة، وأنا هنا في جزء من نهر أو فرع من تيار قوي لا أستطيع حتى الصراخ لئلا يدخل الماء جوفي.

هل تراني بكيت؟

أجل، بكيت حياتي كلها، وأنا أراها تقفز مني حيث لا حياة بعد ذ لك مطلقا.. بضعة أوراق كانت معي، تناثرت حول فراغـــات المـــاء وهـــي تأخذني معها إلى زاوية تحتي، فوقي، وأنا أنظر نحو سطح الماء عساني أرى طوق نجاة أو خرطوما يمتد لينقذني.

لكن الماء صار يسخر مني.
تلك كانت أول مرة أرى فيها الماء يضحك وأنا.. أموت..

***

الأعور

عند الباب، نظر إليه الشرطي، وقال بحقد وامتعاض:

–ادخل..

ثم أشار إلى شرطي آخر، وقال بصوت يشبه ثغاء خروف:

–هذا هو مهدي..

وانتشرت رائحة، جاءت من وراء صحراء عظيمة شاسعة، فيها طعم الغابات وأنين العصافير وهدير البحر. لم يكن مهدي قد أحس بشيء رغم أن الشرطي الثاني تناوله دون اهتمام، وأنزله غرفة ضيقة، أسقطه بين طعم آخر وأنين قاس وهدير لم يأت من البحر.. ثم أغلق عليه الباب. بعد أن صرخ في نصفه عينيه:

–هذا المكان يناسب الحمير، لا تنهق حتى يأتي السيد المعاون، مفهوم؟ النهيق ممنوع، التدخين ممنوع..حتى يأتي.. مفهوم؟

ليس من السهل أن نختار أعداءنا. فكر "مهدي" أن هذا الشرطي الداعر يناسبه جيدا أن يشتغل قوادا على جملة من النساءن ثم قال في ذات نفسه:

–وما الفرق؟ كلهم يضحكون بلا سبب.. الله يخلق البشر والشيطان يضع التوابل..

وقف الشرطي يحدق في "مهدي"، من رأسه حتى قدمية، وصار يهز يديه، يشخر مثل بقرة وهو يردد:

_أنت إذن "مهدي"؟ لعنة الله عليك وعلى أمثالك..

تركه لضوء خافت وذكريات تعبانة، وجسد منهك مريض حتى مـــرت ساعة واحدة، كان فيها يصارع آلاما لم يكتشفها أحد في جسمه، يتوسل الهدوء والراحة والنسيان.. بينما كان المعاون خلف الباب يصرخ بصوت بارد:

– افتح الباب..

عندما نهض "مهدي" وكان منثورا بين أجساد وسخة حـــاول أن يبـــدو هادئا وطبيعيا وسليما، بينما راح المعاون يحدق فيه من أعلى رأســـه، إلى كل شبر في جسمه السمين المدور، لم يكن نحيفا مثل بقية من يعرف مـــن الثوار والمعارضين وعشاق السياسة والمشاكل، وقد رأى المعاون في هـــذا متعة، فقد صار يضحك منه ويمد إصبعه إلى كرشه بين وقت وآخر:

–أنت سمين يا "مهدي"، كيف تفكر إذن؟

كان "مهدي" ينظر إلى هذا الكائن المجوف وفكر في نفسه هامسا: قل لي لماذا تضحك؟ أقل لك من أنت.. راح المعاون يثرثر، ولم يكن من شـــيء فيما قال يستحق الرد عليه، لكنه بعد وقت قصير، قال غاضبا:

– من الذي أخفاك هذه المدة كلها؟ كنا نبحث عنك منذ شهرين..

ولم يقل شيئا..

كان البحر بعيدا جدا، ووجه "ليلى" يطارد أمواج البحـــر، ذاك النقـــاء الذي غمر الدنيا، وأغرق الروح في فرح لا حدود له.

أشار المعاون إلى الشرطي أن يأخذوه إلى غرفة في آخر الممر، وكان آخر ماقال:

–سيأتي من يستلمه غدا صباحا، لا تقدم له أي شيء من الطعام، لا أريد أن أرى أحدا إلى جانبه، حتى صباح الغد..

في آخر الممر، حيث تجمع النفايات وتحتفل الجرذان، أهمله الشرطي، بين رائحة البول والغائط، بعد أن همس في أذنه:

–ألست صغيرا على السياسة يا بني، من ورطك في مأزق كهذا؟ لعنة الله على السياسة إذا كنت أفهم شيئا منها، لا أدري من جاء بها إلينا؟ لم نكن هكذا أيام المرحوم..

ثم أضاف الشرطي المسن، دون سبب:

–ابني في كلية الهندسة، الصف الثاني.. أي والله، وهو الآن في سجن آخر إذا ما عرفوا بأمري ربما ينقلونني بسببه إلى مهنة أخرى، ربما عامل أو فراش.. كل هذا من وراء السياسة، قطع الله عمرها وأنقذنا منها.

نظر "مهدى" إلى وجه الرجل، مجرد تجاعيد في كل مسامة من ملامحه. وأحس بحب كبير ومفاجئ للعالم الذي مازال بعضه نقيا ومشرقا، وبريئا جدا، ولم يقل شيئا، غير أنه حدق ثانية في هذا الوجه المنهك.. وهمس بعد وقت طويل:

–أنا لسبت سياسيا، ولا شأن لي بالسياسة، كل ذنبي أني قلت بعض الحق في بعض ما أرى.. إذا كانت هذه هي السياسة، فأنا إذن سياسي محنك، وخطير..

ثم دخل الغرفة القذرة.. مع جرذ سمين وبراغيث ليست أقل صحة من الجرذ النشط وذباب ليس أقل رحمة من الهواء الفاسد الذي أرهقه بسرعة فنام مثل مقتول، وهو يحرك يديه شمالا ويميننا كمن يطرد كابوسا مرعبا.

لكن شيئا في خفيا في القلب، كان يخفف هذا الرعب الساقط مثل الزلزال.

انظر إلى نفسك في المرآة الآن وقبل أن تقرئي أي حرف آخر كلماتي.. هل تعرفين كم أحب هذا الوجه؟ كم أحب أن أغرق في ملامحه طوال عمري؟ ليتك الآن معي، في الشوارع، نغرف في رائحة النهر، في الزحام بين النخيل الذي ينمو من أجل حبي.

إنه لعذاب بالنسبة للرجل أن تقاومه امرأة، أن تصارع رغبته بمثل ما عرفت فيك من عناد لكنك لا تدركين كم أحبك؟

أحلم أن أصرخ في الشوارع كلها، في ممرات المدينة، بأنني أحبك حقا.. فقد اكتشفت اليوم فقط، بأنني على خطأ، وأخطائي تسحرني، تسحرني وأنسحب إليها..

هل ترك تفهمين؟

أنحني على يديك، أشعر أنك مولات، وأنني خادمك الصغير، ليتك يا سيدتي معي، ترحمين هذا الشوق الغريب.. فقد تعلمت أن أسكر بك.. وأذوب في اسمك النبوي الباذخ.

"ليلى"..

هل تراني أشتعل وحدي، في هذا الغضب الذي اسمه أنت؟

أريد أن أغرق في أعمق ما يلد البحر، في آخر سحابة من السماء، إنك الآن معي في هذا الخراب الزاهر، في ملكوت الكآبة الساحرة.. ألمس يدك، وأخاف عليك من نفسي، فأين أنت الآن، أيها البحر المهاجر حتى آخر العمر؟ أين أنت؟

لماذا لا يساعدني حبك على النوم؟ إن ذراعي تمتد إليك وجروحي تبحث عنك.. لماذا لا يساعدني حبك على النوم يا "ليلى".

في الصباح..

غادر السيد "مهدى"، غرفته القذرة، كان الجرذي السمين قد اعتاد عليه، فوقف عند العتبة، كأنه يبعث بتحية باكية، بينما تجمعت البراغيث في مكان واحد، تبحث عن شيء جديد..

وفي الطريق إلى مكان آخر.. كان "مهدي" يحدق في الأشجار المنكسة، في النهر الحزين الممتد من تحت عينيه إلى حيث لا يدري.. وكان الحزن عرشا يجلس فوقه بقناعة وصبر.

إنه يعرف، وهذا يكفي.. بقدر ما يرتفع القرد، بقدر ما يظهر قفاه، وقد بدأ قفا هؤلاء القردة يرتفع يوما بعد يوم.. لقد كان "مهدي" يعرف، وهذا يساعد أمثاله على البقاء..

لم يترك رجلا في الشارع أو امرأة أو طفلا أو نخلة أو حمارا أو حفرة أو دكانا إلا ونظر إليه، من أين له أن يرى شيئا بعد اليوم.

رأى وجه امرأة يشبه وجه أمه، وكاد يبكي لولا أنه تذكر: أن هؤلاء الجزارين ينظرون إليه، وعليه أن يتماسك حتى آخر الشوط..

قال له أحدهم:

عليك أن تشبع من رؤية الشوارع، فقد يمر عليك وقت طويل دون أن تراها، أشبع، أنظر إلى النساء، إنهن لا يحضرن إلى هناك.. أبدا.

كان "مهدي" يعرف هذان لكنه الآن، تعمد أن يكف عن النظر إلى شوارع مدينته، وأن يجلس هادئا، معاندا نفسه على الصبر.. نعم، قد

وصل مكانهم، ولكن بأية حال؟.. إن (أسخف) كلب يمكنه أن يحدث جرحا مميتا، يكفي أن يكون مسعورا، كما قال "بول فاليرى".. إن له أسنانا زائفة لكنها قاسية جدا، إنهم يستعملونها ضد اللحوم الطرية المسكينة.. قال "مهدي" في ذات نفسه:

– أين أنت الآن يا "ليلى"؟

لماذا الغضب يا "مهدي"؟ ولماذا الحزن؟

كل شيء بيني وبينك بات معكوسا، من ترى كان عليه أن يغضب، ومن ترى كان يستحق الحزن منا؟

هل تظن أنه كان سهلا على أن اكتشفت بعد سنة واحدة من (حب جميل صادق) أنني كنت مخدرة بوهم كبير، بأكاذيب لا حد لها؟ وإنني كنت مستخدمة جسدا وروحا من أجل أغراض رخيصة لا رابط بينها وبين جسدي وروحي؟

هل أنت نفس المناضل الذي يسمونك "مهدي" الذي تعرفك النساء قبل الرجال؟ من أنت إذن؟ أي شيطان يلعب فيك.. قل لي رجاء.

إنك تبتز إنسانيتي وأنوثتي وطهارة روحي، سنة لم تكن قصيرة، أي دعي كذاب أنت؟ كيف تراني صدقت هواجسي، وما كان من خيط يربطها بك على الإطلاق.

حاولت أن تجردني من حقي، حتى كي تجعلني أزداد حزنا وأنسى من أنت حقا؟

ترى بأي ادعاء وبأية أكذوبة ستغلق الآن فمي؟ هل أقول لك بأنك تستحق السجن؟ كلا، لن أقول هذا فأنا حزينة جدا، أريدك، أريدك،

حتى بهذا الجنون الذي يملأ رأسك الحقير أريدك لأنـــني لا أعـــرف بمـــن أحتمي؟

دعني إذن أحتمي بكل ما لديك من حب كاذب وحنان زائـــف، فأنـــت على الأقل لا تدري حتى الآن بأنني اكتشفت كل شيء فيك.

لم أفقد الثقة بذكائي، وقد نظرت إلى كل خياناتك معي على أنهـــا تـــزق مراهق.. وسوف أحتمل منك هذا لأسباب لن تفهمها أبدا؟ فقد وفـــرت عليك حتى الآن أن تفكر بي.

إنني أرحم أعصابك المرهقة..

ماذا تريد مني أكثر من هذا يا صديقي المناضـــل.. ياصـــديقي الفاســـق الجميل؟

–أهلا بالسيد "مهدي"، تفضل اجلس..

كان يدري جيدا، أنهم يسخرون، لهذا راح ينظر تحت يديه، ثم إلى بنـــاء الغرفة الأزرق القبيح، وقال في ذات نفسه، لـــن أخـــرج حيـــا، علـــيّ الاحتفاظ بكبريائي مهما يكن من أمر.

قد يهزم، ولكنه لن يسقط بينهم، الهزيمة قد يكررها العذاب وتمزيق الجلد بالعصا والكهرباء والماء الساخن.. لكن السقوط لمرة واحدة ليس بعدها سوى الندم القاتل.

–لن أخرج حيا، لكنني الآن مازلت حيا.. وكل مالا يقتلني يزيدني قوة..

أية كبرياء تنجو من هذا التمزيق الأرعن؟

إن "مهدي" يفهم الآن: معنى أن تكون الكتابة (فن التورط).

ليحترم إذن هذا الثمن الباهظ لماقال، إنه ليس إلا واحدا فقط بين مئات مثله وفوق خارطة العالم الثالث.. نعم.. لقد فارق الشـــمس والأشـــجار والنساء والشوارع، وقد لا يعود إليها.

الشمس؟! تلك الساحرة التي كان يكرها صيف، صار لها طعم الحب كله في هذا المكان القذر المعتم، المملوء بالناس القذرين.

النساء؟! إنهن يمشين في الذاكرة، ويقتلن صبره وإرادته، أين ذاك الجمال الذي يمشي في شارع النهر، والرشيد مثل غزلان هاربة؟!

–اجلس هنا.. هذا مصنوع من الخيرزن الجيد.. تفضل..

جلس "مهدي" إثر حركة قاسية جاءت على قمة رأسه، وكان خاليا من الخوف تماما، ربما لأنها المرة الثالثة، أو ربما الرابعة التي جاء فيها وأين؟

في ذاك البيت الكبير، البيت المقصلة..

ليس هذا أنا، لا أريد أن أكون هنا..

نم أيها الصغير المكور.

نم أيها السمين الساذج، أيها المناضل البائس المضحك، من أنت كي تقف بوجه رصاصة؟

هناك في الفجر "ليلى"، تبحث عني، عند شواطئ الدنيا كلها.. تسأل عني الرياح والعصافير والمطر.. تسأل الأغاني والنساء وصـــمت البحـــار.. تبحث عني بين الكتب، تسأل الخارجين مـــن دور الســـينما والبـــارات وأطفال المحلة..

تسأل عني الخارجين عن القانون، فهم أدرى الناس بي.

نم أيها اللعين.

أنت تلعب بالنار، وقد كف الجميع من اللعب بها منذ سنين طويلة.. ليس غير الصغر والأغبياء والمجانين من يلعب اليوم بنارهم.. إنها تحرق الأخضر واليابس.. تحرق العبد كما تحرق السيد، فما بالك يا "مهدي"؟!

ابك قليلا.. لا تخجل..

ثمة من يعرف حزنك أكثر منك، ثمة من تعرفك أكثر مما تعرف نفسك..

أنصحك بالبكاء، فالدنيا كل دنياك غلط، غلط من جذورها حتى فروعها غلط.. هذا هو الفرق بين الماضي والحاضر..

هل تفهمين يا"ليلى"؟ جسد بشري– مثل جسدي تماما– يجلس في شرايينه (إله) فاسق، ماذا أفعل معه؟

هل قرأت شيئا عن رجل اسمه "ابيقور" وهل تراك فهمت ما يعنيه بـ"دين الاستهتار النقي" وماذا يعني (انجيل غير المؤمنين)؟

هل فهمت لماذا مات وكيف مات؟ ماذا يهمك أنت؟ فقد مات كل شيء في وقت قصير جدا قصير.. التلفونات ذات الرنين الأنثوي.. الرسائل ذات الخط المتعرج.. النهر الذي..

والجسر الذي..

ورعشة الحب التي غرقنافيها..

في وقت جد قصير يا "ليلى" ليس غير الحزن أنيسي، السفن التائهة، والعواصف العنيدة.. والبحر الذي صار عدوي.. وأنت.. مازال اسمك "ليلى".. أليس كذلك؟

– خذ له صورة جانبية، وأخرى للوجه كله، قل له أن يحلق لحيته وأن يبتسم، انتبه لئلا يفعل شيئا بنفسه.

– لكنه سيدي، لم يأكل حتى الآن.. مر وقت الغداء والعشاء وفطور هذا الصباح.. ربما أصابه مرض ما؟

– إلى جهنم.. أيقظه الآن، وليسأله أحدكم عما به.

ذهب الشرطي إلى غرفة "مهدي"، وعثر على ضفدعة صغيرة تمرح في الزاوية كان جسد "مهدي" مغطى بالبول وملامحه تدل على صمت يعرفه الشركي جيدا..

قال الشرطي في ذات نفسه:

– إنه ميت، ليس من شك في هذا الأمر.

صار على شرطي آخر وقال مثل قوله، وذهبا سوية إلى الضابط الأعور، وقالا بصوت واحد:

– إنه ميت، سيدي!

ما كان من السهل أن يصدق (الأعور) قولا غبيا كهذا، إنهم لم يفعلوا به شيئا حتى الآن؟ لم يمت في هذا المكان سوى من تعذب فوق خازوق أو صعقته الكهرباء، أو قتلته الحشرات بعد وقت طويل جدا.

أما "مهدي" فقد مات في اليوم الرابع، لم يكن في صحة رديئة، بلا كانت كرشه عالية، ودمه يسري صاخبا في العروق.. ماذا جرى حقا؟

– هل قتله أحد؟

ذهب (الأعور) إلى الطبيب الخاص، سحبه من يده اليسرى بعنف، لم يقل أي شيء، حتى وصلا غرفة "مهدي"، وأشار إليه، أن يفحصه بدقة.

قال الطبيب بسرعة:

– إنه ميت منذ أمس، نعم، ميت منذ البارحة.

سأل الأعور:

- كيف تم هذا؟ ما سبب الوفاة "كان في تمام صحته حين جاءوا به، لم نضربه إلا قليلا، بل كنا جميعا نمازحه ونلعب فيه.. ما سبب وفاته؟

قال الطبيب بخوف وهدوء:

- لا أدري.. ربما عرفنا السبب إذا غسلنا معدته، قد يكون ابتلع شيئا من الحبوب، ربما كانت معه ولم نعثر عليا عند تفتيشه أول مرة.. ربما..

صرخ به الأعور:

- ربما؟! هل جئنا بك هناك لتردد كالببغاء.. ربما.. ربما.. هل نسيت ما جرى في الشهور السابقة، عندما مات بين أيدينا ثلاثة مثله؟

أم تراك نسيت؟

أجاب الطبيب بشيء من الصرامة والقوة كأنه استيقظ من غفلة:

- ليس هذا ذنبي، أنا لست المسئول عن إحياء الموتى.. أما إذا كنت خائفا من العقاب، فهذا شأنك وليس لي من رد آخر، أنا طبيب فقط، ولست الله..

قال أحد الواقفين من الشرطة:

- ماذا نفعل به سيدي؟

صرخ الأعور وهو يضرب الشرطي على عينه:

-إذن افعل ذلك دون سؤالي أنا.. مفهوم؟

أجاب الشرطي:

– مفهوم سيدي..

ثم غطى عينه عن ألم كبير، بينما همس الأعور في ذات نفسه:

– أولاد القحبة، رواتب بلاش.

قال الأعور لرجل طويل كان واقفا مثل حجارة:

– هات ملف "مهدي"، المرقم 17253، عسانا نجد حلا لهذا الورطة، من كان يصدق أنه يموت بهذه السرعة؟ أي مناضل سخيف هذا؟! لم نتمتع به غير ساعة واحدة فقط..

ثم جاء الطبيب، نظر إلى وجه الأعور، وقال:

– سأذهب بعد إذنك لرؤية "وفاء".. إنها تشكو من آلام عديدة.

صرخ الأعور:

– إنها في أحسن حال، ثم إنها شيوعية، من قال إنها مريضة؟

أجاب الطبيب بأعصاب محروقة:

– إذا ماتت لا تقل لي شيئا، تذكر أنني طبيب هذا المكان.

نهض الأعور من وراء مكتبه وقال غاضبا:

– اذهب إليها إذن، لم يبق علينا سوى حماية العاهرات..

ثم راح يصرخ من وراء الباب:

– أين ملف هذا الكلب؟ نريد أن ننتهي من هذه الورطة السخيفة.

ومر وقت من الصمت، كان وراء السحب الزرقاء، وراء المكان كله، خلف آلاف المقابر والشوارع المحفورة، وراء المآذن والمدارس والبيوت

المهدمة الفقيرة وجه "ليلى"، صامت مثل سحابة زرقاء، حزينة مثل قبر متروك.. تحس بشيء في القلب كأنه ورم سام وخبيث:

أين "مهدي" ماذا حل به يا ترى؟

وكان "مهدى" قد مات في صمت عجيب، بموته ربما غير نوع القتل والتعذيب في هذا المكان القبيح، كان موتا صعبا لا يشبه الموت، غريب لم يعتد عليه أحد من جلادي هذا المكان.. بات موته يصنع الأسئلة ويهز النفوس.

–تفضل سيدي، هذا ملف "مهدي".. بعض أوراقه مفقودة وصورته في المرة الأولى لا وجود له.. لا أحد يعرف السبب.

صرخ الأعور، وكاد يضرب الرجل الطويل الذي ضم يديه بصمت وحذر:

– من أعطاك الملف؟

– السيد "رشاد".

– قل له أن يأتي حالا، حالا.

خرج الطويل وارتطم بكتف الطبيب، الذي قال توا:

– "وفاء" مريضة جدا، يجب نقلها إلى مكان آخر، إذا بقيت هنا يومين آخرين ربما تموت، أرجو منك نقلها لئلا تزداد مشاكلنا.

– إنهم لا يحاسبون على قتل أمثالها، اطمئن.

– لكنها ستموت.

ومثل فأر مريض، سال الزبد على شفتي الضابط الأعور وراح يزعق دون أن يعرف الطبيب، ما يريد قوله تماما:

–لا شأن لكم بأحد، "مهدي" أو هذه الشيوعية القبيحة، اتركوني معهم، أنا المسئول عن الموت والحياة هنا، تموت؟ إلى سقر وبئس المصير، مـــاذا كانوا يعرفون عندما يتآمرون ضد الدولة؟ ارموهم في الزبالة، لا أريد أن أسمع شيئا، مفهوم؟ مفهوم؟

راح يكر كلمة (مفهوم) عشرات المرات، حتى هدأت أعصابه، فجلـــس وهو يلهث عن جهد كبير، بيما خرح الطبيب وقد قرر في ذات نفسه أن يجد حلا لوفاء ولنفسه معا.

دخل "رشاد"، وهو أشقر ذو عينين دامعتين، لا يصدق من يحدق فيه أنه يعمل في هذا المجزرة الرسمية، قال بصوت أقرب ما يكون إلى الهمس:

–نعم سيدي..

نظر الأعور وقال:

– أين الأوراق والصور المفقودة من هذا الملف؟

أجاب رشاد بنفس الهدوء:

– لا أدري سيدي، لم يكن الملف معنا، طلبه أحد الســـادة الكبـــار وأرجعه إليها بعد أن نقله إلى أكثر من مسئول للتداول في شِـــأن "مهدي".. وقد سألنا عـــن الأوراق والصـــور.. ولم يأتنـــا أي جواب، وما كنا ندري أن الأمر على هذا الجانب من الأهميـــة. ثم سيدي ماذا نفعل قد اتصلوا بنا؟..

رفع الأعور رأسه حتى سقف الغرفة، وضرب بيديه على حافة المنضدة، وعاد إلى زعيقه ثانية:

- أي كلام هذا؟! ألا تدري معنى قولك هذا؟! هل تراك تعمـــل في دكان عطار أم مكوي للملابس؟ أكاد أصدق ما يجري هنا؟ من أخذ الملف أول مرة؟ أنتم تتآمرون ضدي، قل، من أخذ الملـــف أول مرة؟

أجاب الأشقر:

- لا أدري من كان الأول، ربما..

نهض الأعور، وصفع الشاب ذا العينين الدامعتين، وهو يصرخ فيما بـــين عينه:

- يا أولاد "القحبة"، كلكم ترددون لي (ربما) كأني أعمل مع خرفان لا تقرأ ولا تفهم ولا تكتب، لقد مات "مهدي"، وأريد أن أعرف عنه كـــل شيء.. أريد أوراقه كاملة، هل كان مريضا؟ هل كان يملك جواز سفر؟ أريد أن أعرف أسماء عائلته كل ما يتعلق به.. وهذا الملف ناقص، نـــاقص تماما..

- سيدي، نستطيع الذهاب إلى بيته ونأتي بأوراقه الخاصة، ربما تنفـــع في شيء؟

قال الأعور، وقد أحس بشيء من الفرح، وتغيت سحنته ببطء مما جعله يندم على صفعه الشاب، لذلك قال له:

– رائع، هذا كلام ذكي، افعل هذا بنفسك.. الآن..

خرج الأشقر، بعد أن عاد إليه صفاء النفس، ناسيا ألم الصفعة، وشعر بأنه أدى واجبه على أتم وجه.. واتجه إلى بيت "مهدى".

عاد مزهوا وهو ينثر أمام (الأعور) أوراق "مهدى" الخاصة، مئات الأوراق، ثلاثة دفاتر، مفكرة صغيرة، وقطعة روق صفراء مكتوب في أعلها اسم طبيب معروف.

قال الأعور:

– هذا شيء ممتاز، حقا، إنه لشيء رائع.. سنعرف الآن كيف نكتب عنه.

وحينما خرج "رشاد"، راح الأعور يقلب الأوراق ويبحث بن السطور عن أسرار الميت، لكن الأوراق لم تكن سوى رسائل حب فقط، ولم تكن الدفاتر سوى مذكرات يومية سريعة لحياة "مهدى".. وقد وجد الأعور في قراءة بعض السطور لذة صارت تنمو في عروقه وتزداد قوة، وكان يسأل نفسه:

– أية امرأة هي "ليلى"؟ لابد أنها من كوكب آخر؟ إنه يكتب عنها دائما هذا السمين البطران..

هل كان (الأعور) يعرف شيئا عن الحب؟

إذن كيف راح يقرأ في عشرات الأوراق، ويسح اللعاب النازل فوق حنطه، ويدور في أرجاء الغرفة؟ هل يتمكن الجزار أن يتعلم الحب من أوراق ساخرة كأوراق "مهدي"؟

- جميل أن نرى هذه الـ"ليلى"، من السهل أن ندبر أمرا للقبض عليها، قضاء ليلة معها، هذه خير أدلة لتعاونها مع فوضي حاقد مثل "مهدي".

وهل سنرى أحسن من هذه الفرصة؟

ثم راح يقرأ في إحدى الأوراق، المكتوبة بخط "ليلى".. يزداد شبقا مع كل كلمة، ويضحك في ذات نفسه على هذا التعبير الشاعري الذي سيأخذ "ليلى" إلى مكان شاعري جديد وأحمر.. أحمر حقا..

"مهدي"..

ما زال خطك جميلا، وأسلوبك معبرا وجيدا.. يعني مازلت تحسن الكتابة.. ترى، هل ما زلت تحسن تمثيل (الحب)؟

وصلتني منك رسالة كاذبة أخرى..

لا أدري لماذا وضعت صورت فيها وأنت مفتوح الصدر على صخرة في "مارسيليا"؟

في ومن الأسفار يا صديقي القديم، كان السفر مدهشا وساحرا معـــك.. وكان ينطوي على نقاء كبير وحب لم تعرف الأرض مثله.

ما الذي تغير؟

لماذا تبعث بصورك الخاسرة؟! لماذا تعطيني ذكرياتك النظيفة؟ّ هل تريـــد مني نسيان ما فعلت بى؟ لماذا تبعث لي أوهاما عن رحلة كانت أكبر مـــن كل أحلامى؟ ماذا جرى يا مهدي؟

خائفة أن أراك يوما وأنت لا تعرف الكذب ولا الكتابة، إنـــك نفـــس الرجل الذي عرفني وحيدة في مدريد.. لتذهب مع نوع رخـــيص مـــن النساء إلى فنادق مجهولة في الشمال.

ماذا جرى إذن لقطارات الليل، أليست هناك امـــرأت تحمـــل أوجـــاع جسدك الشبق (المناضل)؟

ألا تجد اليوم من تنتصر عليها وفوق نهديها ليوم أو يومين فقط؟

ألم تعد صفة (المناضل) فيك تغري امرأة واحدة تحشوها كـــذبا وخمـــرا وأحلاما أكبير منها كما فعلت معي؟

ماذا دهاك يا صديقي القديم؟!

لا أراك مناسبا للحزن، أعرف أية أحزان كاذبة توهم نفسك بها.. أعرف مسراتك الصغيرة التي تملآ عليك حياتك معي.

ومنذ الآن، لا تجرب تمثيلك الساذج، كلماتك أكبر من أحزانك يا صديقي، فأنا أعرف حدودك جيدا وأعرف الخارطة التي تمشي عليها.

إنني أعرف تماما خارطة عقلك وجسمك والشرايين التي في دمك وبعد اليوم، لن تثير في جسدي وعقلي سوى الخوف عليك.

نعم..

أنا خائفة عليك يا صديقي (المناضل) فأنت تمشي إلى الهاوية بغباء لا حدود له، وأريدك أن تحذر من أجلك أنت لا من أجلي.. فقد راح طفلنا وراح حبنا.. ولكن ما زال في الروح شيء من ذكري لعينة تسورني..

ما زال بعض حبك كافيا لقتلي، كافيا جدا، أيها الحقير.. كم أحببتك وكم غدرت؟

فكر (الأعور) بهذه النعمة التي نزلت عليه.

إنه محظوظ أن يرى دليلا– حتى لو كان كاذبا، لصيد هذه المرأة.. من أين يبدأ؟

راح يقلب مذكرات "مهدي"، ثلاثة دفاتر مشحونة بالأسفار والنساء الخمر، ولم يكن (لنضاله) من أثر في صميم هذه الحياة العجيبة. – أهذا نفسه من كنا نبحث عنه وصرنا سببا ف موته وصار سببا في قلقنا؟ إن مذكرات تحكي إنسانا عاشقا ومسافرا دائما لا يهدأ.. أين هي الحقيقة إذن..؟ يا لنا من مغفلين وحمقى..

لكن الأعور كان يفكر– إلا– في جسد "ليلى"، لا بد أنها صغيرة وذكية، شيء من السحر، إن ما كتبته ليلى يدل على امرأة في غاية الشبق، وأن عليه أن يراه ويمرح معها، ليلة أو ليلتين.. ومن السهل أن يختلق عـــذرا يأتي بها سريعا الليلة بالذات.

إنها بين يديه متى أراد..

عند المساء كانت "ليلى" في طريقها إلى الأعور.

لم تصدق أن الدنيا طبيعية أو أنها ما زالت بخير، فكل ما جـــرى في بحـــر ساعتين، أقرب ما يكون إلى الكابوس.

كان الأعور يعرف كيف يبدأ مع النساء، حين أمر بتركه في غرفة ضيقة جد، تمرح فيها الأمراض والذكريات والحشرات.. مما جعـــل الكـــابوس يصل قمته، وكان الخوف يزداد في الروح، إحساســـها آفـــات الغرفـــة وكوابيسها في عروق "ليلى" بعد أن وصلت حد العرب، قاب قوسين من الجنون، أخذت ترتعش هلعا وتبكي..

كانت تلك إشارة دامغة إلى أن يبدأ الأعور هجومه الأول حين أحضرها مغمضة العينين، وتركها واقفة أمامه، لا تدري أين مكانها، ومـــن تراهـــا تسمع الآن؟

–أنتِ "ليلى فاروق"؟

–نعم.. لماذا أنا هنا؟

–لماذا أخفيت "مهدي" طوال الشهور الثلاثة الماضية؟

–ما هذا الكلام؟! ولماذا أخفيه؟! هل كان مطاردا كي أخفيه؟!

ثم.. ماعلاقة كل هذا بما أنا فيه الآن، ماذنبي أنا كي تأخذوني من بين أهلي؟

–تكلمي بهدوء، من السهل أن أضربك الآن وأكسر أسنانك جميعها.

شعرت "ليلى" أن نبرة هذه الحنجرة قد تكون صادقة في تهديدها، لذلك خف صوتها، وقالت بهدوء:

–أنا أعرف "مهدي"، وكنا شبه مخطوبين.. هل في هذا من جريمة؟

–هل ذهبتما إلى مدريد وتيرستا وأنتما مخطوبتان؟

–هذا أمر يتعلق بنا فقط..

أجاب الأعور وهو يحدق في زوايا جسد "ليلى"، عند فتحة فخذيها، صدرها المراهق الغريب، إبطيها، خصرها، وكان يمسك ما بين فخذيه من وراء البنطلون عندما قال:

–إن مجرد كونك تعرفينه يعطينا الحق في قتلك كما فعلنا معه... وأن نجعل من هذا..

صرخت "ليلى" دون وعي بما صار يدور حولها:

–هل قتلتم "مهدي"؟ هل مات "مهدي"؟

أحس الأعور أنه– ربما– تسرع في كشف هذا السر، فقال بصوت صارم قاس:

– اخرسي، ألا تدرين أنه متآمر على منجزاتنا، وأنته واحد من أبواق الاستعمار؟

لكن ليلي ما عادت تفهم شيئا وكادت تسقط لولا أن الأعور ترك خلفها كرسيا جلست عليه، وهي تجهش بالبكاء والذكريات السريعة.. الذكريات الجميلة فقط.

انحسر ثوب ليلي عن جزء من فخديها..

راح الأعور يحق فيما بشهوة غاضبة، الليل يغطي آثاما كثيرة في هذا العالم، وكان الأعور يفكر بسرعة أن يفعل شيئا مع هذه الأنثي الرائعة قبل أن يكتشف البعض أنه جاء بها دون أمر رسمي.

أغلق باب الغرفة..

كل شيء كان يتم بسرعة، ضربها على رقبتها في موضع يعرفه جيدا، فسقطة "ليلى"، وما إن رفعها حتى تم له ما أراد.. أدخل كل أمراضه وعقله في كل جزء من "ليلى" بعد أن رفع غطاء عينيها، رآها تغرق في إغماء قاتل.. إغماء لم يشهد له مثيلا من قبل.. وبعد أن سحب نفسه من بين فخذيها، كانت "ليلى" قد فارقت العالم.. بهدوء غريب، ليس أقل غرابة من هدوء "مهدي"، الذي مات دون ضجة، وبهدوء يشبه موت نين..

كان الأعور قد ضاجع جثة لا حراك فيها..

وما إن اكتشف الأمر بنفسه، حتى صار عليه أن يخفي جريمته بسرعة كان في حوزته وتحت يديه– عشرات الكلاب المطيعة.. كان هو الحاكم، وكانت كلاب الصيد تزداد يوما بعد يوم..

كان الأعور قد أحرق الأوراق والدفاتر كلها، لم يبق في حوزته من شيء يدل على ماضي "مهدي" أو أثر يشير إلى وجود "ليلى".. كانت الكلاب المطيعة المسعورة، تحت يديه يطعمها السحت والنفاق، يدربها على قتل الإنسان، معها كانت النار قد أكلت في ليل طويل أسود كل أوراق "مهدي" و"ليلى".. والتتهمت معه كل حقوق الإنسان.. الأعور يقف بنفسه ليرى النار تصعد وتصعد، وبين دقيقة ودقيقة يسقيها ورقة ورقة.. ولم أتعبته أشباح النار ترك ما بقي من أوراق، تحت أسنان الوهج العالي، وراح إلى غرفته، بينما أخذت النار تنهش الماضي..

ثمة ورقة، أو جزء صغير من ورقة لم تستكع كل جيوش النار أن تسحبها إلى النسيان– جزء من رسالة قديمة– كان "مهدي" قد كتب فيها:

–اهدئ سيدتي، لن نخسر بعد كل شيء ، لا تشتمي حبي، فما زال كل عرق وكل نابض في قلبي يردد اسمك.. وكلانا سنبقى معا حتى آخر العمر..

لن أرد على قسوتك بشيء، فأنا أحبك جدا. يكفي أن الحياة– حولنا– أقسى آلاف المرات. ولن أغفر لنفسي أبدا أن أشرح أسراري.. ذلك أنها

تزيد الوجع وترهق النفس.. وأنا أريد أن أحتفظ بها لنفسي.. لا أريد أن أقتسم حبك مع أوقاتي الحرجة، ليس ثمة ما تصعب قسمته كالحب.

اهدئي يا ولية أمري، فربما جاء اليوم الذي أحقق فيه بعض..

وكانت النار قد وصلت حدود "أحلامه" والتهمت أمانيه واحدة بعد واحدة بينها أعلنت (جمعية الرفق بالحيوان) عن بند جديد لحماية الفقمة والبغال والخنازير.

ونفذ البند الأول منذ اليوم الأول.

***

السيد دعبول

كان اسمه "دعبول":

ولم يكن بينه وبين المال أيما علاقة سوى أنه صار يملك نصف مليون دينار، رآها تحت يديه بعد موت أمه بشهرين فقط.

لم يسأل كيف جاءت هذه الثروة، ولم ينظر إلى عيون البشر وهوم يغزلون الصفات القبيحة عنه، لكنه ترك النقود كلها في بنك "الشورجة" حسب وصية أمه، ولم يأخذ منها غير عشرة آلاف دينار، اشترى بها ليلة حمراء هنا وليلة ساخنة هناك، وسافر إلى القاهرة وكازابلانكا تسعة أيام فقط.

عندما رجع إلى بغداد مر بشارع الخلفاء، دخل الشورجة وسحب عشرة آلاف أخرى، وهو يفكر بهدوء.

- ماذا عندي يكفي العمر كله؟

في منتصف الشهر الثاني، غمرته الليالي بسحرها فأطفأت تحت نيرانها عشرة آلاف أخرى، لم يصدق هو نفسه، كيف تموت الدنانير بمثل هذه السرعة في تلك البقع المزحومة بالدخان والخمر والنساء؟!

كان طبيب القلب، مكسور العقل، لا يصدق أن ثمة من يكذب عليه ويسرقه ويهزأ منه.. "دعبول" كان يحب الناس، بلا سبب، يعاشرهم

ويضحك معهم ويعطي من ثروتي بلا حساب، حتى رأى نفسه بعد ثلاثة شهور يقتل آلاف الدنانير ولم يتمتع بها إلا مرة واحدة أو مرتين.

في سهر خميسية، جمع فيها خمسة من جيرانه وأصدقائه، اشترى فيها ما لذ وطاب من الخمور والسجائر والمزات والسمك المكسوف، الذي جاء من نهر دجلة على صينية من فضة، قال أقرب الجالسين منه:

- عليك يا "دعبول" أن تفكر بمشروع أو أن تقتل بيديك هذه الثروة الطيبة.

قال الثاني:

- هذا كلام سليم، نحن نحبك يا "دعبول"، وحرام أن يذهب هذا المال في متع لا تدوم.

عندها، رفع رأسه، كاد أن يصرخ "اتركوني أنا حر في أموالي"، لكنه نظر إلى أقرانه بقلب محروق، وراح يسأل:

- ماذا أفعل؟ أنا لم أشتغل طوال حياتي..

انتهت السهرة بعد عقد واتفاق على شراء معمل لصناعة الأسمنت..

كانت فرحته أكبر مما تخيل وهو يرى اسمه بالحروف الكبيرة يرتفع على جدار عريض، وأخذ يقرأ اليافطة عشرات المرات:

- معمل "دعبول للأسمنت".

واحتفل بهذه المناسبة مع عدد كبير من رجال الأعمال الـــذين صـــاروا يسألون عن هذا "الدخيل" الساذج الذي لا يفهم أي شيء عن عملـــه الخطير هذا.. حتى أن أحدهم قال له وهو يبتسم بلؤم لا معني له:

- عليك يا أستاذ دعبول أن تكتب كلمة "المقاوم" بعـــد الأسمـــت حتى تعطي فكرة معقولة عن النوع الذي تبيع وتصنع.

وفعلا صارت اليافطة بعد وقت جد قصير تقول باللون البرتقالي الغـــامق "معمل دعبول للأسمنت المقاوم".

في تلك الليلة نفسها كان التليفزيون يبث إعلاناته بطريقة مغرية، فهـــذا مصنع وكني لصنع الحلويا وهذه شركة وطنية للبناء والـــتعمير الجـــاهز، وهناك معمل وطني لتجهيز البيوت بالمبردات.. وغيرها..

كما استهوته كلمة "وطنى" بل رأى فيها هبة من السماء نزلـــت أمـــام عينيه، رفع التليفون، مد سبابته يلتقط بها رقم الخطاط الذي صـــنع لـــه اليافطة البرتقالية الغامقة، وقال بفرح طفولى:

-أريد منك أن تخط لي كلمة الوطني بالحجم نفسه وتضعها بـــين كلمـــة الأسمنت وكلمة المقاوم.

وفي الصباح راح "دعبول" ينظر إلى معمل دعبـــول للأسمنـــت الـــوطني المقاوم. فأخذته النشوة بما فعل حتى أنه أمل المزيد من تشـــريب الباميـــة وشرب المزيد من اللبن الحامض اللذيذ.

في المترل الذى تم فيه دفع القسط الثاني من ثمن المعمل كـــان "دعبـــول" يضحك ويشرب الخمر ويغازل مذيعات التليفزيون مـــن وراء الشاشـــة الدافئة، حتى سأله رب المترل:

– كيف الحال مع المعمل؟

قال مثل مغامر عاد لتوه من مغامرة رهيبة:

– بخير، بخير والحمد لله.

قال رب المترل:

– إنه مشروع إنساني، وأنت ياسيدي "دعبول" إنسان طيب حقا.

سأل دعبول بدهشة:

– مشروع إنسانى؟

قال أحد الزوار:

– طبعا يا "دعبول"، كل عمل فيه خير للناس هو عمـــل إنســـاني، وأنت تعطي للناس ما يحتاجون إليه.

قال زائر آخر وهو يحتسي المزيد من الخمر:

– أنا أقترح عليك يا "دعبول" أن تكتب هذه الصـــفة في أعلـــى الجدار.

فكر "دعبول" بهذه المنحة التي جاءته مجانا وهو يرفع سماعة التليفون– ورغم أن الوقت كان منتصف الليل– فإنه راح يقول بصوت سكران:

– لا تزعل مني، لكنني أرجوك أن تغير اليافطة.

جاء الصوت من الجانب الثاني:

– ماذا أكتب يا سيد "دعبول" أنت تأمر..

قال "دعبول" وهو يهز رأسه مبتهجا:

– أريدها أن تكون "معمل دعبول الإنساني للأسمنت الوطني المقاوم". وعندما نام، كان يحلم أن يرى هذا الاسم الجديد في صباح اليوم التالي، وهو يشع باللون البرتقالي الغامق، بين بقية العناوين البائسة التي تملأ المنطقة.

كان "دعبول" أكثر الناس فرحا بما يفعل، حتى أنه لم يسأل النقود التي كانت تتسرب من بين يديه بسرعة وقحة.

لم يكن "دعبول" أكثر الناس فرحا بما يفعل، حتى أنه لم يسأل عن النقود التي كانت تسرب من بين يديه بسرعة وقحة.

لم يكن "دعبول" ممن يصغي لنشرة الأخبار، لكنه يقرأ الجرائد للتباهي كما يعفل أقرانه في المعامل المجاورة، كما أنه يسمع ثرثرة الناس بشغف لا حدود له، وهو جد حريص على فهم بعض المعاني المعقدة، وقد صفعته كلمة "سياسة" التي تدخل رأسه عشرات المرات في اليوم الواحد.

حتى أنه قرر– لأول مرة في حياته– أن ينكسر خجلا أمام بعض معارفه ويسأل عن سر هذه الكلمة التي صارت تنزل مثل الرعد في الراديو والتليفزيون والمقاهي والبارات والبيوت التي يزورها.

قال له صديق يشيرب الخمر في بيته كل أيام الخميس:

كل شيء في حياتنا "سياسة يا دعبول"، البيع والشراء سياسة، ما تكتبه الجرائد سياسة، والحروب بين بلد وآخر سياسة، حتى المعمل الذي تصنع فيه الأسمنت هو عمل سياسي، لا يختلف عن الزراعة التي تأخذ منها الرمان والتفاح، أو المصنع الذي يبيع السلاح، كل شيء هوسياسة بمعنى وآخر.. هل فهمت يا دعبول؟

فتح "دعبول" فمه ثم أغلقه، ثم فكر قليلا، وقال:

–وهل المعمل الذي أشتغل فيه، هو أيضا سياسة؟

–طبعا إنه عمل سياسي من الصنف الممتاز.

كان "دعبول" يفكر بسرعة لا تناسبه أبدا، ودون وعي منه رفع التليفون على الخطاط وقال له فورا:

–أريد منك أن ترسم كلمة "سياسي" في أي مكان من يافطة المعمل.. أريدك أن ترتبها حسب المعنى الذي يناسبها..

وعند ظهيرة اليوم التالي، كان يقرأ بفرح غامض نافر عجيب تلك اليافطة الجميلة التي تقول: "معمل دعبول الإنساني للأسمنت السياسي الوطني المقاوم".

غمرته الفرحة، حتى أنه أعطى العمال كلهم مكافأة عشرة دنانير وأضاف مائدة عامة إلى مائدته، حضرها العمال وهم يتسابقون إلى الطعام الشهي تحت فكرة واحدة يبدو أنها جمعتهم كلهم بلا أي تخطيط مسبق.

ما إن رجع "دعبول" إلى بيته بسيارته المرسيدس مكيفة الهواء حتى طرقت سمعه من مذياع السيارة صفة حلوة ومثيرة جدا، كان يصغي إليها– دون بقية المفردات– بلهفة وطفولة وإعجاب، فقد أذاع راديو بغداد أربعة أخبار، أولها عن الزعيم السوفياتي المخنك "ميخائيل غورباتشوف"، وهو يطلب بوقف سباق التسلح النووة، وثانيها عن ذكري القائد المخنك "جمال عبد الناصر" الذي ضاع في زحمة أخبار كرة القدم وانفتاح الشارع المصري (المفتوح أصلا من سالف الزمان)، أما الخبر الثالث فهو من نصيب الثائر الفلسطيني المخنك "ياسر عرفات" الذي طار آلاف المرات من جميع المطارات من أجل إقناع ثلاثة من الرؤساء العرب على الحب والوفاق، ولم يستطع على الإطلاق، بينما كان الخبر الرابع عن الزعيم الصيني المخنك "دينغ زياوبينغ" الذي اختارته مجلة "التايم" رجلا لعام 1985.

أعجبته "المحنك" بعد أن كررها المذياع بطريقة سحرية لإذاعة، وبدلا من الذهاب إلى بيته راح صوب "الخطاط" الذي صنع له أطـــول يافطـــة في القرن العشرين وقال له فورا:

– أريد منك أن تجد مكانا بين بقية الكلمات لهذه الصفة العذبة الغاليـــة، سأله الخطاط:

– أنت تأمر يا سيدي "دعبول" ما هي كلمة اليوم؟

قال "دعبول":

– المحنك.. أريدك أن تعثر على مكانها المناسب بين بقية الكلمات.

نظر إليه الخطاط وقال بلا تردد:

– ستراها جاهزة بعد ساعة واحدة ياسيد "دعبول".

وبعد ساعة واحدة– فعلا– كانت اليافطة الغريبة تقول، بلونها البرتقـــالي الغامق:

– معمل دعبول الإنساني للأسمنت الـــوطني المقـــاوم والسياســـي المحنك".

في الصباح التالى:

كان الآلاف من البشر– نساء ورجالا، تلاميذ وعمالا وشيوخا وأطفـــالا وعددا ليس بالقليل من السياح– يحدقون باســـتغراب لا حـــدود لـــه،

ويقرأون بصوت عال، وهم يضحكون على معمل دعبول الإنساني للأسمنت الوطني المقاوم والسياسي المحنك.

في تلك الساعة وبعد أن توهم "دعبول" نجاح مشروعه الإنساني الوطني المقاوم في معمله السياسي المحنك وصلت إليه أول إشارة من بنك "الورجة" تقول مفرداتها بوضوح لا شك فيه:

"السيد دعبول جار الله معصوم..

- الجرد السنوي لحسابك الجاري المرقم (**00712215**) وحتى يوم السبت الثالث من كانون الثاني هو سبعة دراهم لصالح بنك "الشورجة".

في اليوم نفسه كان "دعبول" قد فارق الحياة، ولم يبق من أثر له سوى "معمل دعبول الإنساني للأسمنت الوطني المقاوم والسياسي المحنك".

أما الغريب في أمر هذه القضية فهو أن هذا المعمل وقد أغلق أبوابه منذ شهور طوال ما زال يرفع هذه اليافطة البرتقالية الغامقة على طريق معسطر التاجي منذ موت السيد دعبول وحتى الآن!

هذه القصة تحكي عن الزمن الذي كان فيه الدينار العراقي الواحد يعادل ثلاثة دولارات، وهذا يعني أن ثروة بطل القصة كانت مليون ونصف مليون دولار ما يوازي بلغة اليوم أربعمائة مليون دينار عراقي فقط.

امرأة من سوباور

في مقهي راما، على نهر الدانوب، أخبرني (سانكي ريباس) أنه بحاجة إلى سيجارة، دخانها تطاير نحو أسماك النهر، وحين أغريته بسيجارة ثانية راح دخانها العجيب يمسح بعض ملامح (باكا) سرقت نصف سجائري وهي تسحبني مثل دب كسول إلى قلعة الصيادين، هناك حيث قالت:

– لا أفهم كيف تجلس مع أغبي رجل في بودا؟!

كل شيء مباح، ثمة عند قلعة (سينابيلا) ثلاث بنات يرقصن كما الدروايس، ليس من رجل معهن، بعد ألف ومائة عام تكسر هنغاريا الطريق لتلبس (ايف سان لوران) وتلتهم سندويتش (ماكدونالد) مع أن "ماركس" و"ستالين" مازالا في كوابيس الذاكرة وفي الطرقات الخلفية من العاصمة.

– "سانكي ريباس"، أغبي كائن عرفته في حياتي.

ثم مدت أصابعها إلى لسانها، تشم (شيئا) عند مساماتها البيض، وتبتسم بلا سبب، ليس من عاداتي قطع الرغبات، تركتها ومشيت أسرع منها، أسمع صراخها خلفي، مع أنها لم تزل تضحك وتشم أصابعها وتلهث:

– انتظر أيها الهرم المثلوم.

لا أحبها حين تغضب، هذا الشيء الذي تأخذه من رحيق أصابعها، إنما بفضل ما بيني وبينها، أمنعها من دخول محلات (ليفز) هناك حيث يعمل ذلك السافل الذي تسميه (الملك ستيفان) يعطيها ما تشاء من المارجوانا والهيروين، تمشي على نغم خفي في الجسد، لا أفهم من أين تأتي بتلك الشتائم تلصقها على جلدي.

أسمعها.. وأنا أبتعد عنها:

- تعال يا صديقتي، علاجي عندي أيها الصحرواي البائس. لم تكن "باكا" غير محطة، ينبغي عبورها بسرعة، أخاف هذا النوع من النساء، يمكنها أن تذبح إذا لم تحصل على سيجارة (مارلبورو) وهي تشرب القهوة في مقهى راما على مهبط ذاك الدانوب الساحر.

ما زالت تعوي وهي تشم جلدها المدهون بالكوكايين، تلهث دون دموع وتضحك دونما سبب:

- أنت أغبي من "سانكي"، ولهذا تحبه أيها "الشاه الكش"، انتظرني، أنا لا أريد مطلقا، أنا أريد أن أصفع وجهك وأرميك إلى الجحيم.

كنت أحافها، أريد الخلاص بجلدي، الآن قبل أن تجف نباتات ميلانو وتيرسنا، هذا النوع لا حدود لقسوته إذا ما أراد أن يشبع مساماته بسموم صقيلة وشمال ميزتور، كيف لي- أنا الساكن في سكوني- قيادة

امرأة جاءتني من نيران (سوبارو) وبراكين حدود كرواتيا، سرقوها– كما قالت– واغتصبوها مئات المرات وعادت إلى (بودابست) عساها تعثر على لص أكثر قوة ووسامة، حتى جرجرها الملك "ستيفان" وأعطاها أكثر مما تستحقه من أسواق "أديداس" مع حرية اختيار اليوم الذي تفرغ فيه من شياطينها وجنونها، ليلة واحدة في الشهر تكفيه، كان الملك "ستيفان" في السبعن من العمر، ولم تكن "باكا" غير ثلث تلك السنوات.

– أعطاني عشرة آلاف "فورنت"، من أجل أن أشرب الشاي معه، وأعطاني أكثر من ذلك مرتين وأنا أرقص في غرفته.

"باكا" تعرف عنوان غرفتي، والشارع الذي اقطعه صباح كل يوم، ومقهي راما الذي أحب، والمكان الذي أدرس فيه، أمامي ثلاثة أعوام من الفيزياء، كيف تراني أهرب من "باكا" ثلاث سنوات إذا ما جاءت وهي تشم ذاك الشيء من أصابعها تلهث مثل كلب يسابق عاصفة؟

– أترك غرفتي؟ أجل، والشارع الذي، ومقهاي الجميل، كيف بي والمكان الذي أدرس فيه ليس غير محطة قطار واحدة عن بيتها؟

قبل أن أختفي تماما، كانت "باكا" قد سقطت على حجر القلعة المسنن، نظرت إليه من نهايات قلعة الصيادين، ترفها أكف الناس، ينبغي الرجوع إلى "باكا" فورا، رأيتها تبتس وتشير أن اقترب منها، بقع من الدم لم يمسحها أحد بعد، سمعتها تهمس:

– أنا لا أحب "سانكي ريباس"، لا أحب الأغبياء، لا أريد أن أراك بعد اليوم، أريد سيجارة أخيرة أيها الصحراوي البائس.

راحت تنفث دخانها صوب ممر حجري، رأيته تبكى– أول مرة بكت فيها "باك"، ربما– لكنها قالت وهي تمسح دمعة:

– أنا أبكي غبائي، كيف أعطيتك وقتي وأنت تخاف حتى المارجوانا؟ أي رجل أنت بحق السماء؟!

رمت بقية الدخان على "نن عينى"، وابتعدت، لم تلتفت أبدا، كنت أحدق إليها، تمشي بهدوء، لابد أن نبات ميلانوا وتيربسنا قد جف تماما عن ذاك الجسد السامق القوي.. مشيت أسرع منها حتى وصلت، قلت لاها وأنا أقطع الطريق نفسه:

– ألا يمكنك ترك هذه السموم؟ أنت أصغر مني وحرام ضياع شبابك الجميل. قالت بصوت دموي ساخر لم أنتبه إليه منذ عرفتها:

– اذهب إلى "سانكى" أيها البليد، اذهب إلى قومك فورا، أحذرك أن تران بعد اليوم، هل تفهم؟ أنا أحذرك فعلا.

أنا الذي كنت أريد الهروب منها، أي خطأ راح يجرفني نحو "باكا" ماذا دهانى؟ كنت أفكر في ترك غرفتي والشارع الذي أمشيه، والمقهى التي أسكن لياليها ونهاراتها، فماذا جرى؟

مشيت على جمر من ذكريات، أقطع جبال (يورال) وأسواق (كيسبر) وعند أ على قمة في "بودابست" ركعت على أرض خضراء، صليت ذاك الوجع القديم الرابض تحت جلدي منذ مئات السنين، هذه المدينة جئتها ذات مرة ولم تكن هكذا أبدا، إنا ضحية من ضحايا (مارك سبنسر) و(كريستيان ديور) لم أعد أرى البراءة التي عشتها ذات يوم.

سمعت(سانكى) يردد اسمي بلهفة، لم ألتفت إليه، لا أريد أن أراه، دخلت مقهي (راما) وبعد خمسة أمتار من بابها العريض، شعرت بغصة حزن لم أحس بها طوال حياتي، لا أدري ماذا جرى في بحر ساعة واحدة من عمري؟! وماذا سأفعل في بقية السنوات الثلاثة التي ما زالت أمام عيني؟! لم يكن من صبر أوحل لتلك البلوى، إلا بزيارة (الملك ستيفان) وشراء حفنة من المارجوانا، ربما تسمع "باكا" بما فعلت وتعود إلى فيزيائي الذي تغير فجأة، لا سيما وأن الرجوع إلى قومي يحتاج إلى معجزة مني.

اسمع "سانكي ريباس" يلهث خلفي يردد اسمي بوحشية وعناد، ولم ألتفت أبدا، فقد أيقنت في تلك اللحظة أن "سانكى" هذا ليس فقيرا ولا خجولا كما ظننت، إنه– كما قالت "باكا"– مجرد شخص غبي.

وما إن هربت من "سانكي" إلى قلعة الصيادين– ثانية– حتى بدأت أشم أصابعي وابتسم بلا سبب، وأنا أصرخ بين صخور القلعة:

–"باكا"، "باكا"، أين أنت يا "باكا"؟

لكن "باكا" لم تلتفت أبدا، كل واحد منا –"باكا" وأنا– قال وداعا لغبي ما.

***

المهم ليس هذا فقط

دخل البيت بعد غيبة دامت أكثر من ثلاث سنوات.. مايزال يملك المفتاح، ربما يملك معه الرغبة في أن يري زوجته المصون وهي تبكي ذاك الفراق القاتل.. فتح الباب بهدوء ساحر، لم يكن من صوت في البيت، الحمام ساكن، المطبخ ساكن، الممرات ساكنة كلاها، إلا غرفة النوم- يتذكر طبعا أن التليفزيون هناك في غرفة النوم منذ زواجهما في التاسع من شباط قبل سبعة أعوام مضت- ها هو يقترب من غرفة نومه، شهيق وزفير وكلام غريب لم يسمعه أبدا طوال حياته.

نظر من ثقب المفتاح، لم يكن من أحد في الغرفة سوى زوجته "زينة" لكن الصوت الثاني يردد بوقاحة مضحكة:

- لماذا لا تصدقين إني أحبك ياسيدتي؟

تحترق العظام، لكن خرم الباب لا يأتي على أحد سوى زوجتها التي فارقها منذ ثلاثة أعوام، يوم جرجروه من ثيابه ورموه وراء الشمس دون ذنب سوى أنه قال في لحظة ساحر:

- إن العالم كله في غروب أبدي، وأن الله ربما عاف البلا التي نسكن فيها مادام اللصوص هم أصحاب الحق في كل شيء.

لم ينطق بحرف واحد، أراد أن يفهم أسباب هذا الشهيق والزفير في غرفته، بينما زوجتها تنام هناك، وحدها، على "مخدة" الحلم الذي

يداعبها بصمت غريب، دفع الباب، لم يدخل غليها فورا، لكنه رآها وهي (تفرك) جلدها تحت حافز شبقي موجع، ربما توهم أنها تذكر اسمه، أو اسم رجل آخر لايشبه ملامح أو حروف اسمه الصعب.

في ساعة من الزمن، رن التليفون في غرفتها، راحت "زينة" ترفع سماعة التليفون وهي تقول:

– أنت ثانية؟ ألا تخجل من نفسك يا رجل؟!

ثم أغلقت التليفون وعادت إلى الهسيس فوق فراش بارد.. ألا ينبغي الدخول عليها الآن؟ لكنه يغامر برذاذ الشك الذي تسلل نحوه منذ زمان بعيد، عساها تنطق بشيء، أو يأتي إليا شخص لا يعرفه، أو تذكر اسما أو عملا لا يدي عنهما أي شيء.

باب مغلق، حيات مغلقة، لا مفتاح لكل ذلك غير أن يقول وهو يبتسم بعد ثلاثة أعوام.

– مساء الخير يا "زينة".

نظرت إليه، إلى السحب العملاقة، النوارس التي احتفت عن البحر فجأة، لا تدري كيف ومتى دخل عليها؟! لكنها مدت يديها نحوه تستجير به من الوحشة التي حاربتها طوال ما فات من سنوات غيابه الثلاث.. هل تراها تستجير من الرمضاء بالنار؟

الشك، منذ أبونا "آدم" هو المحرك الوحيد للناموس البشـــري، الحـــارس مملوء بالشك من حضور اللصوصن الخادم مزحوم بالشك أن يكون سيد البيت على غير وفاق مع زوجته.. الملك يعلوه الشـــك في أن يكـــون الحماية ليست بمستوى غضب الجماهير..كذلك الحال يتكرر حينما دخل البيت على زوجته ولم يجدها في موضع مشين مع "الشك" الذي حاربـــه مئات الليالي وأكثر من ألف نهار كان يقطعه بين الضرب على الحجـــارة والضرب على نبض القلب.. هي بالضبط ألف ليلة وخمـــس وتســـعون رحلة قضاه بين الحياة والموت، لا أحد يعرف ما فيه وليس من كائن يفهم أسرار دمعته كل مساء.

– ثلاث سنوات مرت وأنا أعيش بي يديك في أحلامي.

قالت:

– هي نفسها السنوات التي ذبحتني بعدك يا عبدالرحمن، تحـــرش بي حتى الهواء ولم أفعل غير الصمت.. أنا امرأة تخاف على سمعتـــها بين الناس.

كلام جميل، حلو المذاق، قريب إلى الروح، لكن كيف مضت أعوامـــك الثلاثة يا زوجتي المصون؟ صحيح أن الهواء تحـــرش بثيابـــك وأطـــراف عباءتك الغالية.. الهواء لا يفعل أي شيء .. أريد أن أعرف مـــاذا فعـــل الرجال في هذه المحلة المحرومة– حتى– من رائحة الأنثىظ

نطق الطير الواقف على شفة الحائط، ولم تنطق الزوجة بما يريد.. أخبرها: كيف مرت به السنوات، من العذاب المحرق الذي عاشه وحده دون أنيس ولا رفيق.. قال بأنه يعطيها الحق في أن تكون قد فعلت ما تشتهي في غيابه مهما كان عسيرا على الخيال.

لكن "زينة" تمردت على تلك المخيلة التعبانة، وقالت:

- المرأة يا "عبدالرحمن" لا تشبه الرجل، إنها-كما ترى - أكثر صبرا وأكثر (عفة).

ترك الليل يغفو على الوسائد كلها، لكنه لم ينم في تلك الساعة، حتى سقط النعاس عليه كما تسقط الكوارث.. وفي الصباح استيقظ "عبدالرحمن" وهو يحمل حفنة من الشك التي نامت بين ضلوعه ثلاثة أعوام من القهر والدموع والكوابيس.

رن التليفون مرة أخرى في غرفة النوم، لم يكن خلفه غير صوت يقول:

- اطلبي ما تشائين، أنا وبيتي وسيارتي وأموالي طوع يديك، يا "زينة" زوجك رجل ميت حتى إذا عاد إليك، وما عليك سوى العيش مع الأحياء.."زينة"، "زينة" هل تسمعينني يا "زينة"؟

نظر "عبدالرحمن" إلى زوجته، راح يكرر الكلام الذي جاء عبر أسلاك التليفون لكن "زينة" ابتسمت، ربما بكثير من المرارة قالت:

– هذا واحد منهم، أخبرت يا "عبدالرحمن" أن الهواء نفسه تحـــرش بي، ومادمت رجت إلى البيت– والحمد لله – سيكف الجميع فورا.

– زوجك رجل ميت حتى إذا عاد إليك.

تحرك الشك بين ثناي الجلد المغمس بالسياط، كاد يضربها، لكنه تـــذكر من ضربوه وكف عن ذلك، أوشك أن يبكي، إذا به يسقط فجأة علـــى أرض الغرفة، سقط بسرعة كما تسقط النيازك، دون إشـــارة أو تنبيـــه، وأيقنت زينة في تلك الساعة أن الهواء سيعود ثانية للتحرش بأنوثتـــها، لا أحد يمكنه حماية هذا الجسد الطري الجميل سوى "عبدالرحمن"، ومـــادام "عبد الرحمن" قد رحل بهذه السرعة فما عليها سوى الرجوع إلى الحرب، ربما سهوا يمكنها أن تنتصر على هذه الكومة من الحرمان الـــتي تـــدور وتدور حولها منذ ثلاثة أعوام مضت ويوم واحد عاش به "عبد الـــرحمن" بعد خروجه من خلف أسلاك الموت.

رن التليفون مرة ثالثة وما من أحد يرفعه.

مرة ثالثة وما من أحد يرفعه.

ما من أحد يرفعه.

***

في الطريق إلى..

1ـ لم يفهم السبب

شعر باهتزاز غريب يمتزج مع أصوات بشرية تكـــرر.. لا إلـــه إلا الله.. وتناهى إليه صدى بكاء ونحيب، بينما الشعور بذلك الاهتـــزاز لم يـــزل غريبا عليه.

انتبه إلى أنه محمول في صندوق مغلق، حاول أن يفتحه قليلا إذا به يـــرى نفسه فوق مئات البشر وهم يأخذونه في نزهةبين الشـــوارع والممـــرات والبيوت.

لم يفهم السبب، لكنه أحس بالمتعة وهو يرى تلك الجموع تمشي به دون أن ترغمه على النزول وحمل الصندوق معها!

2ـ مطرب

كان يقرأ في جريدة يرجع تاريخها إلى شهر مضى، وعند منتصف الصفحة الثامنة راح يقرأ خبرا عن رحيل مطرب معروف، ذلك يعني أن المطـــرب الشهير هذا مات قبل شهر واحد على أقل تقدير.

ولم يكن أمامه غير أن يتصل هاتفيا بإدارة الجريدة يسأل بهدوء وبلا مبالاة عن اليوم الذي مات "هو" فيه دون أن يخبره أحد بذلك مع أنـــه– قبـــل قراءة الجريدة– كان قد انتهى من تصوير أغنية جديدة!!

3ـالموت السعيد

خلع ثيابه ونام، كانت متعبا بعد احتفـــال أصـــحابه بمـــيلاده الخـــامس والستين، وفي الحلم الذي امتد به حتى الفجر كان يمشي بملابسه البـــيض الباذخة وحذائه الجلدي الأبيض وربطة عنقه البيضاء يقطـــع البســـاتين والحدائق المزحومة بالفواكه والثمار البيضاء.

كان يبتسم وهو يوشك أن يطير من فرض السعادة، فها هو يدخل السنة السادسة بعد الستين دون مرض وبلا وساوس أو شجون، وبرغم أنـــه لم يستيقظ من نومه، إلا أنه لم يزل يسرح ويمرح بثيابه البيض البراقة، أمـــا الأصدقاء، فهم وحدهم من ارتدى السواد عند الصباح.

4ـنبوءة 2001

كثيرا ما كان يفكر في يالمكان الذي سيموت فيه، لف الدنيا وما فيها من عواصم ونساء وخمور وعجائب، تساءل عن البلاد التي ستشهد العـــزاء الأخير الذي اختاره الرب نهاية لسكرته وجنونه وأسفاره وموبقاته.

لم يمت في لندن أو أو روما أو باريس، ولم يأخذه عزرائيل الطيب عنـــدما مضي نحو أثينا وبيروت والرباط، وها هو قد (مات) فعلا، وقبـــل موتـــه بلحظة خاطفة كما السحر، كان يصدق أي شيء إلا أن يموت مقتـــولا دون أن يعرف السبب، وفي بلاد ماكان له أن يمر بها أبد.

آه لو أنه مات في "بغداد" مثلا.

5ـ يوم الحساب

كان يرى الدجاجة وهي تموت، ويراقب كالكلب وكيف يموت، أكثر من مرة رأي الخراف تذبح وتموت، والحمير تنفق، وعلى شاشة التليفزيون عاش حالات منوعة ومثيرة ومختلفة ومقرفة وغريبة ومضحكة من حالات الموت.. وبرغم ذلك لم يخطر على باله بأنه سيموت مثلهم ذات يوم.

عندما اقتربت يوم حسابه الأثير وأحس بنهايته راح ينظر– وهو على سريري احتضاره– كيف أن الكلاب والحمير والدجاج والخراف مازالت على قيد الحياة، وأن التليفزيون مايزال يبث برامجه اليومية مساء وليلا بحضور العشرات من البشر الذين لا يعلمون بموته.

تلك كانت أول مرة يشعر فيها بكثير من الغيرة والحسد (كيف أن العالم مايزال على قيد البقاء).

6ـموجز الأنباء

في الوقت نفسه، مات عجوز في الصين وثلاثة أولاد يرمون الحجارة في "رام الله" وامرأة من روما وطفل مهاجر إلى السويد مع جوقة أسماك اصطادها عربي في تونس كما مات في اللحظة نفسها ثلاثة جميل على مشارف النهر العظيم في ليبيا وخمسة أرانب من أجل الملوخية في مصر العربية، وأيضا ثمة من مات في إعصار قاتل في ولاية "أريزونا" وحفنة من ركاب التويوتا في اليابان.

في ثانية من الزمن تم ذلك كله، بينما الغرابة لم تكـــن في هـــذا المـــوت الطوفاني الشاسع.. إنها تكمن في أن العراق هو البلد الوحيد الذي لم يمت ولم يقتل فيه أيما "بشرى" في تلك الساعة، أو هكذا مـــا يقولـــه مـــوجز الأخبار من إذاعة بغداد..

7ـفوتوغراف

في الصورة الأولى يظهر عاريا في (طشت) من الماء "لم يكن يومها أكثر من عام واحد".

وفي الصورة الثالثة يضحك مع أقرانه في المدرسة "لم يكن حينها أكثر من سبع سنوات فقط".

وفي الصورة السادسة كان يعوم في نهر دجلة مع شلة من أقرانـــه "كـــان شابا يافعا ووسيما".

في الصورة الثامنة يلتصق مع طلبة الجامعة وقد تخرج بامتياز.

وفي الصورة العاشرة تظهر زوجته وهي تبتسم خجلا في حضرته.

في آخر صورة له، كان يمشي خارج السجن الذي دخل إليه منذ ســـبعة أعوام..

ليس من صورة له وهو على قيد الجنون ، وليس من صورة له وهـــو في داخل المقبرةّ

8ـامرأة من البيغال

في "بوخارست" قالت له قارئة الفنجان: إنك سوف تموت قبل الأربعين.. وكان يومها في الثلاثين.

في باريس، بعد أن قطع "السان دوني" مشيا سحبته إحدى بنات "البيغال" وأخبرته في "عشها الهادي الأنيق: إنك لن تموت أبدا.. وكان قد أصبح في الخمسين.

وحدها من كانت على حق؟ تلك الحلوة التي تسكن في "البيغال" فقد (مات) بين يديها من الفرح.

كان "العراقي" الوحيد الذي يموت من فرط السعادة.

9ـالموت في طائرة

يعتقد جازما بأنه سيموت على متن طائرة تحلق به صوب بلاد الله ثم تسقط في البحر.. أو بسبب طائرة تقصف منزله خلال أيام الحرب.. وربما سيموت في طائرة ملغومة لم تزل جاثمة على مدرج المطار.. لكنه أبدا لن يغادر العالم إلا بسبب طائرة مهما كان نوعها.

والغريب، أنه مات فعلا بسبب "طائرة" من ورق كان ابنه الصغير يمرح معها، إذا به يتابع ارتفاعها في السماء وهو يخطو إلى الوراء.. لم ينتبه إلى جرف النهر الذي جرجره إلى مستنقع من الرمال سقط فيه ولم تزل عيناه شاخصتان إلى تلك الطائرة البعيدة.

10ـعاش الملك

جلس على كرسي العرش، متوجا بالمحبة، قال لشعبه وهو يمشي بينهم في الأزقة والشوارع وبين البيوت: أنا لست حاكما عليكم، أنا منكم ولكم، أنا مثلكم في السراء وفي الضراء.

ولما صفق الشعب له قال في قرارة نفسه: الحمدلله.

بعد عام واحد، وفي ذكري جلوسه على العرش، قال لشعبه من على منصة عالية:

–عليكم وعلينا معا، الكثير من الواجبات والقليل من الحقوق حتى يستقيم الملك والأمان في البلاد.

ولما صفق الشعب له قال في قرارة نفسه: الحمد لله .

في الذكر العشرين لجلوسه على العرش، متوجا بخوف الناس، قال الملك لشعبه– من وراء حجاب– عليكم إدراك مالكم وما عليكم.. والذي لا يفهم ماله وما عليه لايستحق العيش في مملكتي..

ولما صفق الشعب– مذعورا.. كان الملك يقرر في قرارة نفسه:

–هكذا يكون العرش مصانا وإلى الأبد.

لكنه لم ينطق (بحمد الله) بعد ذلك مطلقا.

***

طعم الصبا

من لا يفهم أن بالوسع ذبح المرأة، لا يعرف النساء

بول ليوتي

لم يكن هناك رأس على الجسد، كان يجب أن يقطعه تماما. حتى يصدق أن هذا الكائن الذي اسمه (نظيمة) قد انتهى إلى الأبد.

من يصنع هذا "البركان" البشري من لحوم النساء؟ كيف يمكنها– أية أنثي في الدنيا كلها– أن تمشي بين عيون الرجال ونصف مساماتها مفتوحة أما حرمانهم العميق؟

ماذا يفعل هذا الثوب الصيفي الشفاف، إذ يعطيك– وهو يخفي الزوايا والشعاب والأسرار– نصف ما تريد؟ ما ذنب غارفك إذ نستفيق وترميك منكسرا أما أيام العمر التي تجري برجولة معطلة؟

مشوهة أيام العمر أمام النساء.

كيف إذا صار طعم النساء كلهن– هذا الثراء الجسدي كله– بعض ما كان يراه في "نظيمة"؟!

ليلة من العمر، جاءت في نيسان، مثلها نهار مر في نيسان، بعدهما صارت مذكراته: غابة م الوحوش والسيقان والغيرة والخمر والسكاكين، نهار مع

المعمر، ربما هو نهار ضد أيام العمر، بينه وبين الموت مجرد همة أو اعتراف أو مجرد رشفة من خمر معتق ثمين.

ربما اكتشفت الأمر صدفة، فهذا البيت الذي أمام بيته لم يكن من أحد يسكن فيه سوى امرأة في الخمسين، ملامحها تائهة بين الشيخوخة والموت، وأطفال لم يخطر أيا منهم على ذاكرته مطلقا.

من أين جاءت– إذن– هذه الصبية السمراء، من أعطاها السحر واللحم المسحور وأسكنها المترل الذي يغازل عينه إبان الليل وأطراف النهار؟

سيصدق فورا، أنها تلك الطفلة التي جاءت ذات مساء تسأل عن رغيف خبز زائد، هي نفسها التي رآها قبل خمسة أعوام تلعب قرب الباب مثل كلب مهجور لا ينظر أي عابر إليها، ولا يشعر بها حتى إخوانها وهم يمرحون في الجانب الثاني من المحلة.

هي نفسها طفلة البارجة كم مرة دخلت إلى دارهم، تمص إصبعها خجلا وهي تطلب منهم بصلا أو مطرقة أو خبزا أو ثوبا أو كبريتا..

رائحة البصل تأتى– الآن – مثل مطرقة تضرب رأسه، من أين له أن يفكر أن ذاك (الكلب المهجور) سينمو ويكبر، سيأكل خبزا ويلبس ثوبا صيفيا شفافا، حتى يحرق لحمه وعظامه ويتركه مجرد نبض مكسور ينظر هذا الثراء الرباني، ذليلا لا يعرف حتى النطق بحضرته أو الاقتراب من أنوثته وطغيانه الباذخ.

هي نفسها– "نظيمة"– بركان المحلة ومصائبها، بينها وبينه ربع قرن من شهيق وزفير، سنوات من الموضة والكمبيوتر والديسكو وأفلام الفيديو، لن تأتي بعد اليوم ولن تسأل عن كبريت أو خبز أو ثوب فائض، فقد احترق الماضي، أكلبته المسافة بين العقول والتقاليد، وصار (عبد الواحد) مجرد كائن في المحلة، ربما نسيت – هذه الطاغية– حتى اسمه.

ليس أمام شبان المحلة سوى كبرياء كاذب يمشي به، وبدلة أنيقة انكسرت قيمتها أمام بنطلونات الجينز والثياب المفتوحة.

هل يتقدم بهذه المواصفات المضحكة، ويحكي معها؟ ماذا سيقول؟ يحكي عن الماضي؟ أيام كانت تطرق الباب وتسألها أمها عما تريد؟ ستضحك من شاربه وطوله وبدلته، ماذا يعني كل هذا؟

يتركها، ينساها، لكنها أمام عينيه صار يعرف لون ثيابها، ويستطيع أن يعرف طولها وامتداد ساقيها، إذ لم يكن من المستحيل أن يذكر أمامها عدد المسامات في كل فخذ من فخذيها، إذا لم تغضب سيقول– دون أي خطأ– كم هو قطر خصرها، وزنها، شهيقها، نبضها.

في ليلة من نيسان، لا تشبه أيام نيسان، في الساعة العاشرة والثلث، هذا حساب أكيد للوقت الذي جاءت فيه "نظيمة" تطرق باب بيته، أو تطرق فيها الباب بعد خمس سنوات وسبعة شهور، أي جنون أن يحس الزمان بهذه الطريقة، ما إن فتح الباب حتى قالت بشيء من الهلع:

– أستاذ "عبدالواحد"، الله يخليك، أمي تموت.

هي مازالت تذكر اسمه، ما أهمية أن تموت أمها مادامت هي – حتى الليلة– تتذكر اسمه؟ من أين جاءت كلمة "أستاذ" أول مرة يسمعها منذ ولادته، هل تراها شتيمة نازكة أم رشوة تسبق الطلبات العسيرة؟

كانت سيارت العتيقة أعظم اكتشافت العصر، تأكل الشوارع والممرات والفروع وتهزأ من إشارات الضوء الأحمر، تعبرها بلا حياء أو خوف، هذه أول مرة في حيات يشعر فيها أن بعض ما يملكه صار ثمينا فعلا.

لم تمت أمها، أعادوها في الثالثة بعد منتصف الليل، يسندها بأعصابه وشبقه وفساد جسمه الذي نهشته العادة السرية داخل البيت، غطاها كمن يغطي جوع غضاريف وشهوته، ينظر بين ثانية وثانية إلى وجه نظيمة، يسأل سرا عن (البضاعة) التي دفع ثمنها منذ العاشرة والثلث حتى الثالثة فجرا.

ربع قرن من الفوارق والمزاج وأفلام الفيديو، علمت الناس كيف يصير الجسد البشري مجرد بضاعة للبيع والشراء، بمسامات وأعضائه وثغوره ولحمه الثمين الذي انقلب رخيصا مشاعا.

هل رأيت "نظيمة" شريطا من تلك المحرمات المشاعة؟ هل رأت طوله وشرايين النافرة وحيامنة ومتانة رأسه؟ إذا كانت "نظيمة" قد رأت، فطريقه سالك إليها، لا أحد يعلم ماذا يملك "عبدالواحد" وراء بنطلونه الرمادي الغامق السميك؟

في الصباح، تربص بالزقاق، يطالع النخلة الوحيدة، هناك تحتها تنتظر (الباص) كل يوم.. إذا اقترب بسيارته (التعبانة) ستضحك منها بنات المحلة، بداية خاسرة، هذا النوع من البدايات يمسح الملامح والحسنات القديمة، لا يناسبه العمر الذي هو فيه حتى يخسر البداية، هذه الطفلة تسبح في بحر ماضيه وحيامنة ورغبته المخبولة، لامانع أن تمر الشهور كما تشاء "نظيمة"، شرط أن تكون تحت جرمه الشيق المتورم المحترق الفاسد.

إن الصبر على "نظيمة" حالة من شراء رخيص لا يخسر فيها سوى المزيد من حرمانه وهو قادر عليه، فقد تعلم هذا العذاب منذ صباه، لكنه إذا ما خسرها في لحظة طيش، فهي نهايته ونهاية الظنون التي تسحبه إلى شطآن المتعة والعادات (الذكرية) الليلية الباذخة.

ترك سيارته قرب الرصيف، واقترب من نخلة الزقاق الوحيدة، كانت "نظيمة" أمام عينيه، ملامحها بين السؤال والصمت، لكنه قال بسرعة وهو يرى (الباص) قام بهجوم كاسح عليه:

- صباح الخير.

قالت بشيء من الشك:

- صباح الخير أستاذ "عبد الواحد"، أين سيارتك إذن؟

لم يعرف ترتيب الجواب المناسب، كانت "الباص" قد وقفت في المحطة وبينما تحركت "نظيمة" نحوها، قال "عبد الواحد":

- انتظري يا "نظيمة"، سنذهب بسيارتي، أريد أن أعـــرف كيـــف صارت صحة أمك بعد رجوعنا؟

من أين يأتي الكلام (المناسب) على حين غفلة؟ "نظيمة" تصعد في سيارته الرخيصة، تصعد معها بقية ابتسامة غامضة لم يفسرها، فقد زاحمته المراهقة بعد ربع قرن على فراقها.

- أنا آسف، أعرف أن سيارتي لا تناسبك.

قالت بصوت داعر لا يناسب عمرها:

- لا أحب هذا الكلام، عائلتي أفقر منكم، وأنت تـــدري، أنـــا لا أحتاج أن تعاملني كأميرة، أنا مجرد تلميذة مفلسة.. لكن اطمئن، ربما ينقلب الحال بعد أيام قليلة جدا.

نعم أيها الغبي الذي صار في الأربعين، كلاكما فقير، ليس بينكما غير نهر صغير إذا عبرته بسلام، ترى نفسك في المعجزة تمهل، لا تستعجل العبور بهذه (الدشاشة) الضيقة من أفكارك العتيقة الساذجة.. تمهل فهذا الجسد الخارق يتربصون به ليل نهار، شبان اليوم أغني منك مئات المـــرات، بمـــا يملكون من وسامة وثياب وأموال وسيارات باذخة.

قال هادئا- لم يكن هادئا أبدا- وهو يرى الثروة التي تجلس قرب شهيقة المريض:

– إذا كنت مفلسة يا"نظيمة"، أنا جاركم منذ زمان بعيد، وأرجو أن تفهمي إحساسي نحوكم.

هي الآن تبتسم، جزء من فخذها الأيسر كان عاريا أمام عينه، تذكر في لحظة باهرة أن ثوبها كان يغطي هذا الجزء من لحمه منذ صعودها.. أي لحم سماوي صار من نصيب هذه الطفلة العجيب؟

عند باب المدرسة كان عليها أن تقول (شكرا) وتذهب نحو دروسها، لكنها تلك هي المعجزة تأتي على موعد يشبه كذبة، نظرت إلى عينه وقالت:

– لا أشعر بأية رغبة في الدراسة هذا اليوم.. هل يمكنك أنت أيضا ترك الدائرة يا أستاذ؟

أترك الدائرة يا "نظيمة"؟

أنا أترك الدنيا بأسرها، دون إجازة في هذا اليوم لا يتكرر إلا في نزهة الفراش الحالم الذي تناثرت عليه الحياة من والذكريات وأوجاع الجسم الذي أرهقه ما تملكين من لحم وزوايا ومسامات وزفير!

قال بسرعة لا تناسب العمر الممتد من آلالف السنين:

–طبعا يا "نظيمة"، أنت من يختار المكان الذي نمضي إليه.

قالت وهي تبتسم بإحساس غامض مخيف:

– نجلس في مكان بعيد عن العيون، على نهر دجلة، ما رأيـــك في الذهاب إلى "الصوبر"؟

مثل مراهق مخبور، أجابها وهو يضرب دشبول سيارته:

– كما ترين يا "نظيمة"، سنذهب إلى الصوبرة، ونرجع قبل نهايـــة الدروس.

ضحكت، كانت "نظيمة" تضحك وهي تصرخ مثل عاهرة تمارس الجنس لأول مرة:

– أنا فرحانة يا "عبد الواحد"، أنت لا تقول كلمة (كلا) أبدا.

يقول (كلا) على ما فات من عمر تهري قبل أن يبدأ، كلا أمام تلـــك السنوات الغبية، تأكل فيه ويأكل منها، دون حياة سوى شهيق عابر هنا أوابتسامة طيبة هناك..

– نعم يا "نظيمة" لن أقول كلا مطقا.

نظرت إلى عينيه، تسأل عن هذا الكائن العجيب الذي يجلس في أحشـــاء جرمه الشاهق السامق الممتد نحو السماء.. هي التلميذة الكسولة، مدللة بين يديه وتحت جفنيه، بلا (كلا) وبلا ردود فعل مشاكسة.

ماذا تعني لديه؟ إنها مجرد طفلة إذا ما جمعـــت أو طرحـــت أو ضـــربت سنواتها أمام عمره المطبن بالشيخوخة والتجاعيد والرجولة المنكسرة.

إلى الصوبر، كما تريد "نظيمة"، ربما إلى آخر جرم سماوي في الكـــون إذا تمكن من هذه المعجزات، سيفعل، لكنها مجرد سيارة رخيصة، حـــدودها أطراف بغداد إذا ما وصلت.

لكنه رغم عمرها الذي يطمس في الدهن المحروق والعجلات المريضـــة، سوف تدخل (الصوبرة) فقد أحس "عبدالواحد" أن سيارته (فرحة) مثل فرحه، وأن نشاطها المفاجئ هبة من رب السيارات يمنحها اليـــوم لـــئلا ينكسر أمام "نظيمة".. أمام هذا الجسد الذي تبـــاع مســـاماته بالمـــاس والعنبر والفضة والقداح مسامة مسامة.

في الطريق إلى (الصوبرة) قال كم يغني:

– بماذا تفكرين الآن؟

نظرت إليه، كان الشارع مزحوما بفراغ غريـــب، وحـــدهما في العـــالم، يمشيان في دنيا مهجورة، جرس حنجرته لا يشبه حنجرة الرجال، كـــان يغني بلا غناء، يسأل عن أشياء لا تستمعها "نظيفة"، تعطـــي جوابـــا لا يناسبها، وتمشي بهما مركبة الفضاء.

– أسألك بماذا تفكرين الآن؟

قالت:

– لا أفكر، هل ينبغي أن أفكر؟

امرأة في ثياب طفلة، أو هي طفلة سرقت عقل الشيطان، لم تكن ثمة فروق كبيرة، لكن "عبد الواحد" أوقف سيارته العجوز، أطفأ المحرك، فتح الباب، وقال:

– نرتاح خمس دقائق قرب هذه المزرعة، ثم نمشي إلى الصوبرة..

لم يكن يصدق– حتى الآن – كيف تمشي هذه الدقائق و"نظيمة" أمام عينيه بلا اعتراض وبلا امتعاض.

لكن الدنيا انقلبت – فجأة – وصارت جبال الكرة الأرضية تضرب ذات الشمال وذات اليمين، أراد "عبد الواحد" أن يغلق منبع هذا الشلال الحجري الذي يضرب رأسه، أراد أن ينقذ نفسه من هذه النار التي تشوي عظامه، فما كان يسيرا عليه أن يسمعها تقول بصوت قوي لا انكسار فيه مطلقا:

– ماذا نفعل في هذه المزرعة؟ هل تريد أن تنام على جسدي كما نرى في السينما. ثم قالت وهي تضحك:

– أنا أعرف أفكارك منذ طفولتي، كنت أخاف منك في كل مرة جئت فيها إلى بيتك.. واحد من بنات المحلة أخبرتني أنك لذيذ جدا.. هل أقول لك ما قالت؟

هل شقت القناع؟ أم هي كذبة من نوع سافل تصنعها "نظيمة" حتى تثيره أو تسخر منه؟

شعر بالشلل يسري في جسده وهو يحاول فتح فمه حتى يقول:

– ما هذا الكلام يا "نظيمة"؟ أنا لا أكاد أفهم سر هـذا الكـلام الغريب؟

كانت تبتسم في وجهه، هادئة، متماسكة، صلبة، وهي تقول دون خوف مثل ممثلة عجوز على مسرح قديم:

– أنا صغيرة في السن كما ترى، لكنني موافقة على مـا تريـد.. بنات المحلة كلهن يحلمن بك وأنت لا تعرف أي شيء عما يجري حولك.

دخلت أغصان الليل في ورم الظهيرة، نسمة من الشمال، مـن شـلال مهجور، من أقصى ليمونة في الجبال، تضرب وجهه، تبكيه مـن فـرط الفرحة التي دارت حول جذعه العالي، هل تنمـو في الـدنيا طفلةبهـذه الوقاحة؟ إذا كان في هذا العمر الممتد عمقا، النازل في تربة الشـيخوخة، الصاعد إلى أول سلالم الموت، تناغيه "نظيمة" وتقرص رجولتـه بأنوثـة باذخة، ماذا تراها تفعل مع صبيان المحلة وأصغر من فيها؟ ماذا تفعل هذه الشيطانة المصبوغة بالبراءة والطراوة والعهر؟

– ماذا تقولين؟

– أقول ماكنت تسمع، أنا لا أخاف كما تخاف أنت.. أفهم أحاسـيس الناس من أول كلمة، وأعرف ما يطلبون من أول ابتسامة.

– وماذا رأيت بي؟

جدول ماء صغير، عبراه في لحظة واحدة، طفلان يعبران الزمان إلى فضاء متسع، نخلة على يمينه ونخيل متناثر على يسارها، كان داخل عشب غسلته أمطار الوهم، أمطار "عبدالواحد" تغسل كل شيء يراه: وجه "نظيمة"، النخيل الممتد على يسارها، العشب النائم فوق تراب المزرعة، أمطار تغسله آلاف المرات وترجع به طفلا يقفز من رعونة إلى رعونة، ومن ضحكة منكسرة إلى ضحكة بلا سبب.

قالت:

– رأيت فيك ما أراه في ابن خالتي؟

– ما شأني بابن خالتك؟

– ملامحه وطول قامته وابتسامته وخبثه، كل شيء فيه يشبهك تماما، لهذا هرب منك، فقد اغتصبني وأنا في التاسعة من عمري.

فتح فمه، وجد أبله، كم يقول إن العالم كله احترق الآن، كان تحدق به، تهزأ من شجر الحماقة الذي امتدت فروعه على طول جسمه وصار– بين ثانية وثانية– أصغر من رجل.. لا تريد أن تراه بهذه الملامح المعوجة.

– وبعد هذا الفعل الشنيع ماذا جرى؟

قالت وهي تبتسم: ربما كانت تضحك من هذا المخلوق الذي انقلب من عملاق إلى محض (شيء) قصير.

- ما فعله ابن خالتي كان طبيعيا جدا، الناس محرومة، والحرمان قاتل، عشرات الرجال يتربصون بي في الطريق، في باص المصلحة، في السوق، وفي البيت أيضا أقاربي كلهم يتحرشون بي سرا، هذا يتباهي بطول عضوه وذاك يحكي عن بنات (ينتحرن) من أجل سواد عينيه، ومنهم من يريد أن يشتريني من أهلي.. حتى معلمات ينظرن إلى أفخاذي خلسة، والنتيجة واحدة، حتى معك أنت الجميع يريدون هذا..

ودون أيما حرج، كانت تشير إلى ما بين فخذيها، لم تترك فرصة للنار حتى تهدأ في جسد عبد الواحد كانت ترحقه دفعة واحدة، كاد أن يغمي عليه اشتهاء ورغبة بهذه "الجنية" الطالقة من شقوق المعجزة؟

كم كان غبيا وهو يسأل:

- هل تظنين أني مثلهم يا "نظيمة"؟

الآن كانت تضحك فعلا وهي تقول:

- أنت أكثرهم شبقا، فقد أخبرتني (ميسون) بما فعلت بها، إنها صديقتي، تكتم أسراري وأكتم أسرارها.

صار مجرد فريسة سهلة، هو الذي أراد أن يبدأ الصيد، حتى أنه راح يسأل بغباء وفم مفتوح رغما عنه:

- بماذا أخبرتك "ميسون"؟

بهدوء عجيب، هدوء امرأة لم تعرف الطفولة قالت:"

- اليوم الوحيد الذي جاءتك فيه "ميسون" خرجت من غرفتك مريضة، جروحه تسبقها إلى دارها.. لا يمارس الجنس عشر مرات في صباح واحد إلا نووع واحد من البشر.

قال "عبدالواحد" وهو ينظر العشب النائم الذي أغرقته أمطار الوهم:

- هل قالت كل هذا؟! معقول؟!

- هل كانت تكذب؟

- لا، لكنتها كذبت في إحساسها عما جرى، هي كانت أكثر مني رغبة عشرات المرات، كنت أنا الذي أخاف على نفسي منها.. وبعد ذلك الصباح الملعون هي من كانت تسأل عني، وأنا كنت أهرب منته..

- تهرب منها؟ لماذا؟

- لم أحب رائحتها، حالة من النفور لم أعرف سرها؟

- لكن فعلتها عشر مرات، فهل جاءت تلك الرائحة في المرة العاشرة فقط؟

كان يخسر الجواب كما يخسر الفريسة، لكنه قال:

– "ميسون" امرأة مريضة، الجنس معها حالة من المرض، بلا حب وبلا شوق إنساني، مجرد عملية آلية يجب أن تستمر أطول وقت ممكن.. وأنا لا أريد هذا النوع من الجنس.. وبسرعة، فكر في الكلام الذي سينتهي إليه:

– أنا أريد إنسانة أحبها، حتى إذا جاء حبها قطرة ماء أمام حبي.. عندي يا "نظيمة" عاطفة جامحة لاأريد أن تموت على جسد مريض..و"ميسون" كانت مريضة.

صمت دام آلاف السنين، في دقيقة واحدة من الزمن، قالت "نظيمة"– وهي تنظر إلى السماء–:

– كانت تقول: إنك غير معقول، وإن إبليس وحده من كان يضاجعها بدلا عنك، هي قالت عشرات المرات إن مارأته من لم يكن معقولا أبدا.

قال دون وعيه وقد تذكر "ميسون" وأيما السجن معا:

– أنا كذلك يا "نظيمة"!

راح يفكر في ذاك الصباح الشيطاني الذي اندفع فيه كأنه أراد أن يتخلص من كل ما جسده من شبق وحيامن وحرمان.. فكر مع نفسه: لم تكن رائحة "ميسون هي من فرق بينمهما، لكنه في الصباح الثاني مباشرة، كان يعوم بين سراديب التعذيب أخذوه بلا سبب، عذبوه بلا سبب، ثم أعادوه إلى بيته بلا سبب.

- هل تراني تركتها – أنا أيضا – بلا سبب؟

سمعته "نظيمة" وهو يئن بصوت مذبوح:

- ماذا كنت تقول؟

نظر إليها بشوق جسدي عارم وقال هادئا:

- لا شيء، لا شيء، يا "نظيمة"، كنت أثرثر مع نفسي.

صحراء شاسعة، لا نبات فيها ولا بشر، تمتد هذه الصحراء عل عشب أخضر وسط غابة بلا حدود، غابة من أعشاب ونخيل تعيش في مستنقع من أوهام وكوابيس.. وسط الصحراء كانت "نظيمة" وهي تعتري بلا حياء:

- أنا لا أخاف من هذا كما تخاف "ميسون"، أنا أريد أن تفعل بي ما تشاء، شرط أن تكون لي وحدي، ولا تفكر– وأنت نائم على جسدي – بامرأة سواي.

من فتح الباب لهذا الإبليس الجامح، وماذا سيقول "عبد الواحد" إزاء هذا الحلم المستحيل؟، سوى:

- من يملك "نظيمة"، أو نصف "نظيمة"، لن يفكر– مطلقا– بغيرها إلا إذا كان حمارا أصيلا.

لم تنكسر أما عينينه وهي تقول:

- كلام كهذا، سمعته منك "ميسون" فهل تراك تحفظ أقوالـــك في ثلاجة حتى لا تذوب؟

كان النخيل يصغر ويدخل في مستنقع عميق بلا قرار، كان "عبدالواحد" مجرج نخلة بائسة لم يبق منها سوي رأس يلهث عن خوف، على فريســـة تكاد تهرب من بين يديه وهو يقول:

- يشهد الله أن "ميسون" لم تسمع كلاما كهذا ولا كلاما يشبه ما أقول، كنا نمارس الجنس بلا ثرثرة، وهي تعرف ما تريد، وأنا..

قطعت كلامه وهي تضحك بصوت داعر عذب:

- وأنت تعرف ما تريد، عشر مرات يا "عبدالواحد" مع واحـــدة مثل "ميسون"، ثم إنها ليست جميلة..

نظر إليها وقال برجولة طارئة، كانت إلى وقت قريب عسيرة المنال:

- عشرون مرة معك يا"نظيمة".. حتى أموت.

نظرت إليه وقد اختنق جسدها بالشهوة، ثم رفعت جسدها عن عشـــب أخضر وراحت تمشي صوب سيارته وهي تردد:

- هل يتوفر في الكرة الأرضية من (يفعلها) عشرين مرة؟

أجابها وهو يمشي خلفها مثل ديك منفوش:

- التجربة برهاني الوحيد.

في الجزء السحري الغامض من جسد الإنسان تكمن جرثومته وطاقته وجذور حرمانه المتشعب بين الضلوع، يكمن الجزء القادر على الانتحار أمام كبرياء الرجولة إذا ما خسرها أمام امرأة يحبها..

تحرك هذا الجزء في لحم "عبدالواحد" وفي دمه، وصار يحرك بقية مجساته وهواجسه ووسواسه القديم، تحرك هذا الجزء وصار "عبد الواحد" كله مجرد عضو ينظر صوب البيت الذي تسكن فيه "نظيمة".

كان الموعد معها صباح اليوم التالي، يأخذها إلى بيت صديقه، حتى ينتهي آخر درس من دروس ابن خالتها، علها ترى أو لا ترى..

كان يجب أن ترى ما يملكه من (خير) يكفي عشرات النساء..

والغريب، أن "عبدالواحد" كان يشعر بالرعب – هي الصفة التي لا يملك غيرها الآن– يسري في جسمه، بينما يصرخ شيطانه بصوت فكه عال: أنك منذ الآن تخسرها بهذا التباهي.. هل نسيت كم صار عمرك أيها الشقي الذي مازال يعالج حرمانه بالعادات السرية وأحلام اليقظة؟

بدأ الرعب يسري، والوقت يقترب.. صار الوقت يسري والرعب يقترب، فات الوقت في جسد الرعب، وتغلغل الرعب في دقائق الوقت، تشابكا أمام عينيه وصارا مجرد حالة واحدة تتربص به وتهزأ من حاضره المريض..

– عشرون مرة؟ يالك من أرعن.

كان عليه أن يفعل شيئا في (الصوبرة).. ثمة خمسة كيلو مترات فارغة من البشر لا رقيب فيها سوى الطيور والنخيل وحفنة من الفلاحين، أقربهم إليهما لن يعرف إن كانا رجلا أو أمرأة، أو خراف تمرح في البساتين.. حتى سيارته اختفت وراء حاجز أخضر من نبات الصفصاف.. لماذا ارتعش جسمه واهتزت رجولته في الصوبرة؟ وماذا تراه سيفعل في بيت صديقه، والرعشة لم تزل تطارده، والخوف من هذه الطفلة الطرية ما زال يلهب نصفة جسمه ويحرقه في شهوة عنيدة جارحة قد تنقلب وبالا على نخاعه وتأتي بعكس ما كان يحلم.

في أخطر صباحات العمر، كانت "نظيمة" تقف قرب النخلة الوحيدة، حيث اعتادت الوقووف هناك، لمن يكن ليلها معقولا.. فهي تذهب ثانية إلى هذه التجربة الشيطانية منذ أن عاف جلدها ابن خالتها الخطير..

هذه المرة هي التي احتارت الوقوع تحت حيامن الوحش الذي اخترق بكارتها وأيقظ فيها الفسق الجسدي، ولم تزل بعد في التاسعة من عمرها..

–عشرون مرة؟ داعر وكذاب، لكنني أشعر بالأمان معه، لقد نسيت شكل هذه اللعبة منذ سنين، وآن الوقت أن أفكر فيها.. في أخطر أيام العمر، أشرسها وأعمقها ذعرا ولذة، كان "عبدالواحد" يختار ملابسه الداخلية بعناية لم تطرأ على خياله من قبل، حتى صباح اليوم الذي نال فيه "ميسون"، لم ينتبه تماما إلى نوع لباسه أو حجمه أو لونه، هو الآن يدخل باب الفردوس، بينه وبين شبان اليوم حرب ليس أمامه غير أن يربحها، هو نفسه الذي نام تحت آلات التعذيب في أقذر سراديب

الأرض، سنة من بصاق وجلد، سكاكين من نار تـــدخل بـــين الشـــعر والمسامات وأظافر اليدين، تقلع الماضي والحاضر وتدنس المستقبل كلـــه. سنة من حريق، لكنه انتصر على نفسه يوم انتصر عليها و على آلاهـــم المرعبة، واليوم عليه أن يخترق المعجزة وينام في المستحيل، يركـــب بحـــر "نظيمة" ويسري بشراعه فوق أنينها وطفولتها وطراوة لحمها، أغلي لحوم البشر، وفكر مع نفسه:

– ما هذا الكلام الساذج، جعلتني أسخف خلق الله، هذه الطفلة المجرمة، نظر إلى نفسه في المرآة، ثم حدث في جسمه مسامة إثر مســـامة، كـــان يمسكه بين أصابعه، يسأله مثل صديق قديم:

– هذا يومك أيها السافل العنيد، وسأقطعك من جذرك إذا ما فشلت أو انهزمت. كانت "نظيمة" أما هسيس عاصفة باردة، تحت النخلة المقدســـة الوحيدة، تنتظر مصيرها الغامض اللذيذ.. المسافة بينها وبين عبد الواحد، مجرد شهيق وزفير، كلاهما أمام اللعبة التي تبرأ منها الله ورماها في وجـــه الشيطان.. كان الشيطان يلبس حلة من خرير دود القز ويمشي بحذاء من جلد التمساح، أسعد أيام العمر تمر بين عينيه، يبارك هذا الخطأ الطـــافر الداعر البهي.

اقترب عبدالواحد، نبض قلبه السريع هو الذي أشار إليـــه أن يصـــعد، ذعرها القديم، ملامح ابن خالتهان كلام الناس الذي تسمعه عن البكارة والحمل والشرف الرفيع، جعلها تبتعد إلى الوراء، قبل أن يسحبها نـــبض قلبه وتسلم أمرها إلى مصيرها..

لم ينطق بكلمة، لم يكن ثمة لسان داخل فمه الناشف، ولم تنطق "نظيمة" إلا بحرفين بليدين لم يسمعهما عبدالواحد ولم تفهم نظيمة لماذا نطقت بهما.. كان تقول وهي تصعد إلى سيارته:

– ها؟

قنفذ أكبر من حجمها، يتسلل حارقا في منافذ مساماتها، ربما كانت أغصان من نار تحرق جلها، تلسع ممرات جسدها الطري الشامخ وهي تقول:

– إلى أين؟

– أخبرتك البارحة يا نظيمة.

– هل نذهب إلى بيت صديقك؟

– نعم، أو كما تشائين.

نظرت إلى الشارع دونما سبب، ثم نظرت إلى ملامحه الساكنة المرعوبة، وقالت:

– هل نرى صديقك يا عبدالواحد أم هو خارج البيت؟

يمكن أن يبتسم بعد صمت قاهر:

– ما هذا السؤال الغريب يانظيمة؟ سنكون وحدنا في البيت...

صديقي يفهم هذه الأمور.

ضربت نظيمة سطح حقيبتها، وقالت بحنجرة غاضبة:

– هذا يعني أنك تذهب دائما إلى بيته؟

نظر إليها وسرعة سيارته تزداد:

– أبدا، يشهد الله أنها أول مرة يا نظيمة.

كان عليه أن يصل بيت صديقه قبل أن ترفضه نظيمة، أو تعاند أو ينكسر ينبوع شهوتها ويخسر هذه المتعة التي أنتظرها قبل أن يخلقه الله!

مد أصابع يده اليمني على فخدها، طبطب على جزء من لحمها وهو يقول:

– ماذا دهاك يانظيمة؟ كلامك اليوم لا يشبه كلام البارحة، هل أنت خائفة؟ وبعد وقت قصير، كان عبدالواحد يفتح باب البيتت، كانت نظيمة تدخل مثل فأر يدور حوله عشرات القطط السمان.

قالت:

– هل يمكن أن نخرج؟ أنا أشعر بالخوف.. لابد أن أكون صادقة، أنا خائفة يا عبدالواحد.

– كوني هادئة يا نظيمة.. لن أفعل معك أي شيء دون رغبتك أنت.

فجأة، صارت تلك الكلمات مفتاح أمان، وبات على نظيمة أن تهدأ فعلا، فهذا الذي معها لا يريد أن يفترسها أو يأخذها بالعنف. هولا يشبه ابن خالتها مطلقا، وليس من سبب يدفها إلى الخوف.

كان يقول:

– الباب مفتوح يا نظيمة، وأنت حرة في البقاء وحرة في .....

قاطعته وهي تبتسم:

– يكفي، أنا آسفة والله.. أنت إنسان رائع.

اقترب منها، كان الصباح في هذا البيت لا يشبه أي صباح في العالم، النوافذ كلها مغلقة بستائر زرقاء خشنة، جدران البيت مزحومة بآيات قرآنية، واحدة منها تقول "الله يرزق من يشاء بغير حساب" وآية أخرى تقول "الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض".. ولم يكن أمام نظيمة سوى النوم وقت يشاء عبدالواحد، ولم يكن في عقل عبد الواحد سوي اختيار اللحظة التي يخلع فيها كتلة الملابس المركومة على جسمه ونزع الثياب التي تزاحم لحمها الساحر الذي (دشنه) ابن خالتها منذ ست سنوات، وأعطاه لأول محروم يراها ويكفر بالمصاعب التي ستأتي بسببها.

نظر إليها، هادئا شبقا محروقا حالما، لا يصدق نفسه وهو يقول:

– تعالي.

ولم يصدق مطلقا، أن نظيمة راحت معه إلى غرفة النوم بلا كـــلام، بـــلا عناد، وبلا أي اعتراض، سوي أنها دون أن تدري قالت:

– تذكر أنني صغيرة ياعبدالواحد، جسدي أكبر من عمري كمـــا يقولون، لكنني صغيرة جدا، تذكر الله يخليك أنني صغيرة.

كم سفينة في البحر، عليها أن تغرق الآن، وكم بركانا على امتداد سطح الكرة الأرضية، لابد أن ينفجر الآن، كم نهرا في العواصم مكتوب عليـــه أن يفيض الآن، حتى يصدق عبد الواحد أنه صار قاب شهيقين أو قارب زفيرين من المستحيل!

وهل كانت نظيمة سوى نهايات المعجزة أمام هذا الشبق العارم المكتـــوم داخل طيات الجسد؟ ماذا سيفعل معها، وحريق مساماته مـــازال وديعـــا صافيا معه، ينتظر النوم على فراش صديقه الذي تـــرك البيـــت دون أن يشارك في هذه الحرب الخرافية.

– أنا صغيرة يا عبدالواحد.

كان يقول بلا صوت:

– أدري يانظيمة، عمرك ثلث عمري، إذا ما دخلت في المكان الذي ناله ابن خالتك، سيموت ابن خالتك من رأس الذاكرة، وأنا خائف عليـــك وخائف على نفسي لئلا أخسر ما تباهيت به، وهو عسير على رجولتي، عسير أن أخسر أخطر ما رأيت في حياتي.

– ماذا بك ياعبدالواحد؟

– أبدا يا نظيمة، أريد أن أري ملامحك بهدوء.

– أنت أمام دارنا ليل نهار، شبعت من وجهي سنوات!

قال عبد الواحد وهو يلمس بأصابعه لحمها:

– على فراش كهذا، تنقلب الدنيا من شكل إلى شكل، ملامحك يا نظيمة أراها الآن كأنني لم أرها مطلقا.

قالت – كمن كبرت عشر سنوات مرة واحدة:

– لا أريدك أن تتركن هكذا.. خذني فورا، أو تعال نهرب من هذا المكان الرهيب فورا..

وبلا كلام، كان عليه أن يبدأ لئلا يخسر هذا الكنز الذي منحته الدنيا بلا خرائط أو دليل.. نظر إليها وراح يترع بقية جلد، كانت نظيمة تزداد رغبة في اكتشاف ما جري أيام اغتصبها ابن خالته فوق ثغورها، وهاهي بعد آلاف الليالي وآلاف النهارات ترجع صوب هذا الغضروف المنتصب، يوم أشعلها دون لذة ورش يباس جذعها الصاخب دون إرادتها.

من يدري– هكذا تفكر تحت جرمه العنيف– ربما كان يشبه ابن خالتها أو كان أطيب لحما ورائحة، فهو كما ترى ليس (مستعجلا) كما كان ابن خالتها المسعور الذ دخل مخبولا وخرج مثل امرأة هاربة.

– ماذا بك يا عبدالواحد؟

تذكرت أيام سجني، ليس هو الوقت المناسب لهذه الـــذكريات.. تعـــالي يانظيمة، أنا آسف، أنا آسف حقا.

نظر إليها مثل مجنون، وقرر أن يبدأ فروأ.

من يصنع هذا "البركان" البشري من لحوم النساء؟

مشوهة أيام العمر– حقا – أمام النساء، مشهوة بلا نساء.. أغلق بـــاب غرفة النوم رغم أن البيت من العتبة حتى آخر حجارة على سطحه فارغ تماما.

لكنه أراد أن يجعل المساحة ضيقة بينه وبين نظيمة، كان يريد أن يختصـــر العالم كله في متر واحد أو مترين فقط.. هذا هو يومه الكبير، وعليـــه أن يكسب أنوثتها ويربح الوقت ثانية، ليس أمام رجولته غير الـــدخول في هذه المغامرة إلى أقصاها.

أغلق الباب.

رعشة هذا الجسد تشبه ليلة عذبوه تحت الماء البارد في كانون، يتســـاقط الماء شلالا على مساماته، يضرب النخاع ويطمس في خلايـــا الـــرأس، لكنتها ما إن نزعت ثيابها حتى سقط الماء كله مرة واحدة.. كان المـــاء– هذه المرة، دافئا طيبا يغسل آلامه وينغمس في بكتريـــا وأورام جلـــده، يغسلها من الماضي والسراديب وفولكلوريات التعذيب الشرقي الداعر.

قال هادئا:

- تعالي..

كانت تنظر إلى عينيه، تدخل من باب البؤبؤ الرمادي الغامق، تفتش عن سر هذا العملاق الساكن الذي صار ناعما على حين غفلة.

- تعالي هنا.

مدت يدها اليسري، تغطي العشب الذي اغتصبه ابن خالتها، كانت تريد أن يسرع عبد الواحد ويدخل بستان أنوثتها ويرحمها من التفكير..

مد أصابع يده اليمني إلى نهديها، ثم نزل منهما إلى آخر مسامة في ساقيها، كان يغرق في رائحة الطفولة المخلوطة بالصبا، طعم الصبا الممزوج بالمراهقة والخوف، ثم نزع آخر قطعة قماش عن جسد، وسحبها إليه كمن يسحب طفلا كان تائها في زحام خطير!

مرة واحدة وانكسر الحنين.

أراد أن يوقظه، كما كان يفعل مع ميسون، لكن غضاريف جسمه سكنت مثل جثة، ليس من سبب مفهوم، تصلب النخاع وصار المخ شمعة (تموع) تحت حالة من الذل لم يعشها أبدا.

ترك نفسه تحت رحمة الوقت، سترحمه الدقائق القليلة من هذا الوهن الطارئ، عليه أن يفكر في النساء اللائي مررن أمام عينيه، في الزقاق، في السينما، في التليفزيون، في بيوت الأقارب والجيران، عله يوقظ هذا

الحيوان من كبوته. مرة واحدة، وانكسر الحنين إلى حواء. أيـــن ذلـــك الجموح؟ كان البرق يطاول النيازك، وكانا معا يمتدان على عواصف من ماء ونار... لم يكذب على نظيمة كان يراه ويمسكه بين أصـــابعه، يمتـــد ويكبر، يشهد كل الشياطين إن ما بين فخذيه يكفي عشرات النســـاء.. ماذا جرى هذا الصباح إذن؟

هل قتلته إحداهن بالسحر والشعوذة؟ لكنه محروم منهن، لم يدخل سوى مغامرة واحدة، كانت مع ميسون فهل سحرت له ميسون حتى يعود إليه بعد أن رأت حجمه اللاذع المهيب، ونامت تحت عنفوانه عشر مرات في نهار واحد؟

فات الوقت، كافرا، رخيصا، ذابلا، وعبد الواحد يدعو الله في ســـره أن يتمكن مرة ثانية – فقط – من الدخول بين طيات لحمها الرباني الفاجر.

كانت هي قد بدأت تفهم أن هذا الرجل الشامخ المرتفع الطويل، يشكو من شيء، فقد راح من زمانها ما يكفي ثلاث مرات أيضا.. لكـــن هـــذا الرجل العاري الملتصق بها منذ ساعة ونصف لم يفعل أي شيء سوى أنـــه قال– والعرق ينصب من بين عينيه–:

– لا أدري يانظيمة ما أقول؟ أنا أشعر بإرهاق مفاجئ غريب.

هي، ليس غيرها، أيام السراديب، أنين الغرف الجوانية الرطبة، الماء البارد فوق مسامات الشتاء، الحبل المتين الذي علقوه به ست ساعات، الطعـــام

النتن الذي أفسد معدته طوال شهور من البكاء في غرفة كان طولها مترا واحدا ونصف متر معوج.

ألا يكف ذاك الخوف المستمر– التعذيب الذي يأخذ أشكالا مبتكر كل يوم– في تحطيم رجولته وكسر كبرياء عضوه النافر الطافر العنيد؟

لن يسأل عن سبب آخر.

عبدالواحد يعرف الآن سر هذا الموت البطيء العائب، فقد سلبوه كل ما يفخر به دون أن تمتد أصابعهم إليه.. ذبحته أيام البقاء وحده بلا أنيس، كان يكتبها– تلك الأيام– فوق لحم الذاكرة، يحفرها داخل حبال العقل الذي انتصب شامخا منتصرا رغم آلاف الساعات وملايين الدقائق القذرة.

نظر إلى نظيمة وقال:

– علينا أن نذهب، هي مرة واحدة فقط يا نظيمة.. لقد ذبحوني، يشهد الله أنه ذبحوني.

لم تفهم نظيمة أي حرف مما كان يقول، لكنها مدت نهايات أصابعها إلى ثيابها الداخلية، وبعد صمت دام ألف سنة، قالت:

– ماذا كنت تقول؟ كلامك يشبه البكاء.

أحس بحب جارف إليها، وهو يقول:

- سنة في غرفة رطبة، صيف وشتاء، خريف وربيع، وأنا وحدي يا نظيمة، وحدي مع ذاكرتي، لا شيء معي في تلك الغرفة سوى ذاكرة، أرجع معها صوب الماضي، أتذكر ملامح الناس عذبون بأسلوب طريف سافل، جعلون أرى كيف يعذبون أمثالي، وفي وقت فراغهم يبتكرون مرحة في ذبح كبريائي وتهشيم عنادي ومسح ذاكرتي.

خطأ صغير، مر فوق لسان نظيمة، حروف صغيرة، لم تفهم كيف رمهما اللعاب وباح بها العقل، كانت دورة الدم تمشي عكس اتجاهها، عندما حاوصت عينيها كن يغازل، هو الفك الذي صار شاهدا على نهاية ذاك الصباح الحزين، عندما قالت:

- عائلتي كلها تعمل في مكان كهذا..

صمت لايشبه الصمت، في أعمق أعماقه راحت تهمس في وجه عبد الواحد.

- حتى أختي سامرة، تحكي عن أشياء غريبة تجري هناك!

انسحب الليل كله وتشعب في عروق النهار، لم يصدق عبدالواحد ما كان يسمعه الآن لكنها مازالت تقول:

- يقولون إنها طريقة في العيش ستنقذنا من الفقر بعد أيام قليلة..

هذا بسيط ومفهوم، لكن شيئا يشبه صخرة سقط فورا على رأس عبدالواحد عندما قالت:

- لا أريد أن أكون مثلهم، لكنهم أرغموني..

صرخ بها، كان يصرخ في لياليه الانفرادية ونهاراته الحارقة:

- ماذا تقولين يا نظيمة؟ لا أريد أن أصدق ما أسمع.

- سأبدأ الشغل بعد نهاية هذا العام.

نظر إليها، إلى الصبا الغارق في طفولة فاسقة.. وقال مثل خروف يمشي إلى المسلخ:

- حتى أنت يا نظيمة؟

أحس بشيء يشبه الدمع يسيل على وجنة واحدة من الوجه، كان يثرثر مع نبض قلبه، هو نفسه لا يفهم معنى نصف ما كان يقول:

- إنها معادلة صعبة، ستكونين يوما في المكان الذي ذبحوني فيه، ستكونين ضد أمثالي، لكنك الآن معي، تنامين تحت مني، وحدك من يعرف سر خساريّ وأسرار عيوبي.. معادلة لا تتكرر أبدا يا نظيمة، حتى أنني لا أعرف الخاسر فيها ولا أريد أن أرى الرابح بعدها.

كانت تصغي كمن تنتظر نهاية فيلم سفاح:

- معقول؟ أبدا هذه وقاحة لا أصدقها، لا أريد أن أصدقها مطلقا، أنت معي الآن، وفي نهاية هذه السنة ستكونين من حصتهم تساهمين في ذبح الناس الذين يشبهونني، تدرين أو لا تدرين، ستكونين (منهم) ستكونين منهم يانظيمة.

الغرفة تصرخ كلها:

- ستكونين منهم يا نظيمة.

شلال من جمر، كان يحرق الماضي، تنسل بين إبطيه رائحة العائلة الفقيرة، ليس من شيء معقول، هذا الكائن الغريب الذي يلتصق به ويقذف نصف (جبروته) بين طيات أنوثته، جاهز- أمامه الآن- للذهاب في طابور القتلة، لماذا؟ كيف- وقد مزقته ملايين الثوانى- يسمح للعالم أن يزداد هذا النوع فيه؟

مجنونا كان الرأس.

لم يكن من شيء مخبول في الرأس كان العقل في ذروته، عندما دخل المطبخ وجاء بالسكين، ليس ثمة عاقل في الكرة الأرضية إلا عبدالواحد، لم يكن من شيء مخبول في بغداد سوى تلك السكين، وحدها، ذهبت نحوو الرقبة، تقطع الشرايين وتنحر اللحم الطري.

حتى أنها لم تصرخ، ربما كانت نائمة، ربما قتلها عبدالواحد قبل أن يأتي بالسكين، ربما أرادت أن تموت، ربما.. لكنها لم تصرخ، كان الجسد يتلوى من وجع أسطوري لا يشبه أوجاع الدنيا بأسرها.

على فراش صديقه الغائب، كان هناك الجسد الطفل، مقطوع الـــرأس، كان الرأس على مخدة من ريش، كان الريش قد تناثر في الغرفـــة..كان عبدالواحد يثرثر عند رأسها المقطوع وهو يبتسم، عاقلا، هادئا، مبتهجا.

-كنت أعرف يا نظيمة، إنهم سينتصرون على أعصـــاب، لـــيس مـــن كائن- مهما كان عظيما أونقيا أو عبقريا- يتباهى بالنصر عليهم.. كيف ينتصر العظيم على (شيء) لا يفكر؟ كيف ينتصر النقي على شـــيء لا يشعر؟ كيف ينتصر العبقري على شيء تافه؟

مد يديه..

راح يلصق الرأس بالجسد، عساه يراها كما كانت، كـــان يريـــدها أن تسمع، أن ترى، أن تفكر مثله.. لكنه لم يستطع ترتيـــب نظيمـــة كمـــا كانت!

راح يلبس الثياب، قطعة بعد قطعة، ثم أخذ رأسها في شرشف نظيـــف، وقرر أن يخفي نظيمة، قطعة بعد قطعة، واختار (الصـــوبرة) أن تكـــون المكان الذي يدفنها فيه، ثمة خمسة كيلو مترات فارغة من البشر..

ليلة من العمر، جاءت في نيسان، ومثلها نهار مـــر في نيســـان، بعـــدهما صارت مذكراته، غابة من الوحوش والسيقان والحيامن والدموع.

كان يقطع الطريق إلى الصوبرة، تصـــحبه أيـــام الســـجون والخمـــرة والسكاكين، تصحبه الغيرة من شبان اليوم، يأخذون كل شيء بلا ثمن، وبلا عذاب، وبلا تفكير.. لماذا كان يبكى؟

لم يكن هناك رأس على الجسد، كان يجب أن يقطعه تماما، حتى يصدق إن هذا الكائن الذي اسمه نظيمة قد انتهى إلى الأبد..

لماذا راح يبكي؟

إنه من يذبح من ذبحوه، ألا يحق له أن يذبح بعض من ذبحوه؟

– لكنها ليست منهم.

– تكون.

– أنت لسبت الله–سبحانه– حتى تحكم!

كان النهر لصق وجدانه، قريبا من الدموع، كان النهر يملك القرار، أمواجه تصرخ فيه:

أنت لست الله– سبحانه– حتى تحكم.

ترك سيارته العتيقة تفعل ما تشاء، كانت الدموع تزاحم الذاكرة والعينين.. النهر كان نقيا وصافيا، ومازال النهر نقيا صافيا، رغم خيط الدموع وخيط الدماء وخيط البترين التي تسربت على امتداد غرين الصوبرة.

في أعماق النهر، لم يمت عبدالواحد، كان كل شيء في العالم قد مات معه، الأحزان، وأجهزة التعذيب، الطفولة، والفقر والحرمان، والعادات الليلية المبطنة بالخيال، نظيمة، وميسون، رجال القتل والشتائم المنظمة،

رائحة الماضي، طعم الصبا، كل شيء في العالم مات معه، ولم يتـــذكر– وهو ينزل في الماء– غير أن صوته الغاضب الساخط يـــدوي هنـــاك– في غرفته الجوانية الرطبة– ويصرخ:

–أنا بريء، أنا بريء.

كان الصديق الذي سلم مفتاح بيته إلى عبدالواحد هو الخاســـر الحـــي الوحيد، فقد أخذته الشركة بتهمة التجسس لصالح وارشو وتل أبيب، في وقت واحداً

***

قصة بثلاثة أخطاء

1–فجأة عاد الرجل الإنكليزي إلى بيته، إذا به يرى زوجته في غرفة النوم عارية تماما قرب رجل يطارحها الغرام، فما كان منه غير أن صرخ بها غاضبا:

– لابد أنك على علاقة مع هذا الرجل.. أليس كذلك؟!

2–فجأة تأجلت رحلة الطائرة وعاد الرجل الفرنسي إلى منزله، وما إن دخل على زوجته حتى رآها عارية تماما في أحضان رجل ما كان يعرفه من قبل، إذا به يقول بشيء من الغضب وبكثير من العتاب:

–كان ينبغي عليك أن تخبريني قبل ذهابي أن عندنا ضيوفا إذ ليس في البيت كما تعلمين ما يكفي من النبيذ.

3–فجأة عاد الرجل العراقي إلى بيته، وقبل أن يفتح الباب الخشبي سمع همهمة وهمسا في غرفة نومه، ضرب الباب بقوة عارمة إذا به يرى زوجته المصون في أحضان رجل آخر..

كانت تلك– على ما أظن– أول شرارة انطلقت بعدها حرب الخليج..

***

قطار السمك

أخبروه منذ طفولته، بأنه سوف يموت مبكرا في واحدة من كنائس روما، أو في قطار السمك الذي يتحرك بين إسطنبول، و"باب الهوى"..

لم يكن يومها يصدق أن الموت هكذا قرب وممكن أي مشـــعوذ أخـــبره بذلك لا يتذكر، يتدفأ الليلة على ذكري امرأة احبها في بودابســـت.. ذكرى رجل حاول اغتصابه في القطار الصاعد صوب "مامايـــا" أعطـــاه عشرة دولارات وعلبة روثمان، كان يظنه من أهل بوخارست ولم يصدق أبد أنه يشبه النساء عندما صار الإغراء خمسين جنيها وثلاث علب مـــرة واحدة.

تري، من أخبره بالموت ولم يزل يومها في سن الزعتر؟

أي خطأ يرميه، إلى قطار السمك أو يجرجره إلى كنيســـة في رومـــا؟ أي مهووس أو همه بذلك؟ وهل تراها كانت لعب أراد بها ذاك المخبـــول أن يدفعه إلى الشذوذ؟

أبواب القطار مغلقة كلها في روما، لم يكن ذاك حاله فى"كونستانســـا".. ربما كان الطليان– وفي وقت مبكر– أكثر منا صراحة في تلك الشـــؤون الصغيرة، إنهم يتفقون على الغامرة قبل أن يتحرك القطار، لهذا تراهم في الصباح سكاري وما هم كذلك مطلقا.. لكن "القرار" معهم، لهم الحق في

رحلة نحو "تيريستا" أو "البندقية" دون مساومة تبدأ في كافتيريا المحطة وقد لا تنته أبدا إذا ما جاء – مصادفة– أي شريف أحمق كما هوالحال معه.

في كل مرة أحب فيها أن يجرب نفسه مع الحياة العجيبة تلك:

تسبقه القصائد العصماء والنصائح الملوثة بالغباء، وذاك الشريط السياسي الفاتن من الشعارات وأقوال الصحف اليومية تشع حماقة وتأخذه مرغما صوب الحفاظ على بكارته، نحو قوافل العرب المحشوة بالشهامة والعفة والعقل.. والرجولة.

لكنه الليلة في "تريستا" أو على وجه الدقة مع "فاريتا" أخط من تأخذ المارجوانا عند بحر "الأدرياتيك".. هو الجوال الذي تمرغ مع السيف والصحراء والخنجر، جاء هذا الميناء الخرافي غفلة، لا يدي كيف ومن أين رموه قرب مخازن "فاريالا" يشتري ملابس الجيتر ليمضي بها صوب "مامايا" تباع هناك أضعاف أثمانها مع ليلة في فراش "أرين" أو "مانيتا" أو "داركا" المسعورة التي علمته– فعلا– أن النساء لسن امرأة واحدة كما كان يظن.

كيف أوهموه أنه سيموت مبكرا وقد عبر الأربعين من سفر جامح ونساء لم يعد يتذكر من ملامحهن غير الدموع؟ من ترى أرغمهعلى الظنون أن كل ما يفعله اليوم مجرد "كفن" يلبسه غدا؟

لماذا خدعوه يوم اكتشفوا الجحيم الذي ينام فيه؟ أية بغضاء ساحرة تلك التي أعطته ذاك الجلد الخشن من الكبرياء والجموح؟

في كونستانسا، أوشك عقله أن يتناثر بين العربات، تسحبها الخيول، وبين سلالم الفندق المرمية، يصعد عليها نحو امرأة قالت "كلا" ألف مرة، وفي كل مرة قيامة من قياماتها يسمع ذاك الصدى الساحر الذي يردد عكس ما تقول..

الله كم أحبها..

ربما تكون هي السبب الأولي في أنه سيموت مبكرا كما قيل عنه، هذا يعني أنها ستكون في واحدة من كنائس روما، أو تأتي معه في قطار السمك النازل نحو باب الهوى.

ولم يتعب ذاك الرجل المهووس من الركض خلفه والتوسل إليه، رفع الجنيهات إلى مائة والسجائر صارت عشر علب من أي نوع يشاء.. لم تستطع نعومته ولا رعشة عينيه أن تقول إنه لا يفهم لغز الثمن الذي يعطي إليه، فقد كان يملك من أموال ماضيه ما يكفيه أن يشتري نصف "كونستاتسا" ويأخذ معه البقية من عرباتها وفقرها الغني الذي لا يرى من أول نظرة.

كانت تغضب منته في كل ساعة، لذلك كان يحبها ما إن يفكر لحظة واحدة: أية لذة يحس بها المماليك، أي فردوس هي العبودية تحت جلد الجيب، يفهم أنه مجرد رقم في التاريخ أو خطأ في تركيب الحاضر، وما دام ثمة من أخبره بموت مبكر في قطار السمك، فماذا يعنيه أن يخس ذاك الشيء الغامض الذي يسمونه الكبرياء؟

هاهو في روما..

عند "فونتانادي تريفي" يرمي بألف لير إلى قاع رغبة تجتاحه منذ طفولته، أن تحبه امرأة من ذلك النوع الغامض الفريد الذي لا يتكرر.

أي كابوس يأتي في الليلة نفسها، أن يجيئه ذاك المهووس، يساومه على رغبة تجتاحه في أن يرتاح إلى رجل من نوعه وما الثمن؟.. أي شيء تشاء، لكنه يترك نافورة الأماني، لا يدري إن كان قد رماه عليها أو أن ذاك المهووس انزلق إليها عفوا وتبلل بالماء والشهوة في وقت واحد؟

في كل شبر من روما عند كل تمثال تحت سماء فلورنسا، فوق كل أشنة على مياه فينيسيا بل وفي كل جزء من "مامايا" و"كاتانكا" وشارع المربعات الجميل، كان ذاك المهووس- يحمل وردة حمراء- يساومه راقصا، يغازله بالسجائر والعطور، لا يتعب من التربص به ولا من العثور عليه مهما طال الوقت وكيف امتد زمان الغياب؟، سوف يراه فجأة عند باب الشقة أو خلف نوافذ المطعم أو عند سياج محطة القطار.

ليس من أمل في الهروب، ثمة هروب إلى أمل كاذب، في الحالات كلها سوف يراه، صحيح أنه أقرب ما يكون بمجنونن بيد أنه لا يرغمه على الرضا ولن يدفعه إلى القناعة، بل يوحي بما يريد ويكتفي بالصمت مهما طال عليه الرفض او الازدراء.

ومن أين له أن يتذكر؟ من أخبره في لحظة طيش ويأس أنه سيموت مبكرا؟ لماذا عليه أن يسمك رأسه ويرغم نفسه على شيء من دون

معنى؟ أزقة لم يعد يتذكرها، أبواب في محلة صارت محض سراب، نساء كما الطباشير على سبورة ممسوحة، أي بركان يريد أن ينفجر الساعة في هذا الهرم المسخ الذي يأخذ شكل الرأس.

لا طوق نجاة غير كونستانسا ولا مأوى يناسبه غير ذلك الفندق المرمي المبلط بالدموع والندي، لا أحد يفهم الكهرباء التي اختلط نارها بالمطر الناول فوق العربات وعند رصيف المقهى يشربان هناك الشاي على نغم بريء يقول:

–في السراء نحن معا، وفي الضراء نحن كذلك.

يقترب الرجل المهووسن يرى فريسته في المقهي، هل تدفع مائة جنيه وخمس علب روثمان مع هذا الوقح الجميل الذي يغازل امرأة هناك، حيث لا يمكن أن يمضي إليه؟

في تلك الساعة، هي التي نطقت "نعم" بعد ألف كلا، وأيقن من دون أسرار ن الذي أخبره بالموت مبكرا لم يكن يصدق مطلقا أنها ستعود إليه، وقد رجعا فعلا، في قطار السمك النازل صوب "باب الهوى".

لم تكن في القطار من رائحة للسمك، كانت رائحة حب عنيف و.. موت.

***

جريمة محترمة جداً

"الرأفة أناقة الطغاة"

برنارد شو

لم أكن أعرف عنوان صديقي (سالم درويش) وليس عندي من الوقت غير يوم واحد فقط، إذا لم أعثر عليه سأقتل نفسي بيدي، وأنتهي من هذا البلاء الذي يطاردني وينهش بي.

خرجت (الشورجة) وعبرت الشارع الضيق الذي يقطع المحلة إلى نصفين، سألت عنه أبناء محلة (فرج الله) وأشقياء (الطاطران) وتلاميذ (الجعفرية) ودلالات (أبو سيفين).. راح من بقايا زمني ما يزيد على أربعمائة دقيقة، ولم أقف على أثر أو إشارة أو دليل أو افتراض يرميني إليه.

قطعت تذكر إلى سينما (الفردوس) أحدق في ملالمح البشر، ينتظرون (فلاش غوردن) عساني أرى أو أحس أو أتوهم وجه (سالم درويش) بين تلك الوجوه.. لكنني خرجت منكسرا، أزداد خوفا على رأسي، أمسطه لئلا يتبعثر فوق أرصفة الرصافة.

ليس معي، غير يوم واحد، راح نصفه قرب المقاهي والبارات وبيوت الدعارة، كنت أسأل الناس عن سالم درويش، أحكي لهم ملامحه ومزاجه وطبائعه ولون عينيه، لكن بغداد كلها، لا تعرف من يكون هذا التائه الغامض اللغز البعيد الذي صار يقتلني ببطء بارد وأنا أبحث عنه، ليس عندي غير يوم مات نصفه، مات نصفي، وأنا أذكر اسم صديقي سالم

درويش، أشهق به، وأصرخ، علني أسمع صوته أو أرى بعض مـــا عليـــه، لكن الصباح انتهى، والظهيرة مرت بسرعة، ولم يبق أمام حياتي ســـوى بقية من مساء قصير وليل ميت ليس من أمل فيه.

(1)

رميت نفسي في واحدة من مقاهي شارع (غازى) أفكر: كيـــف ســـأقتل نفسي؟، لا أريد أن يقتلوني بأساليبه المشوهة، لابد من البحث عن موت أنيق يحفظ لي شكلي وملامحي وكبريائي، هذا التعب الذي صار يلبســـني تسرب في كل جزء من جسدي، أشرب الشاي وأنا أحـــدق في وجـــوه المارة، كادت عيني تسقط فوق حصران المقهي، هذا الموت البطيء ذرات من اللذة، سأنتهي من حياتي، وأنقذ قلبي من هذا النبض الزائد، يـــرعبني ويطحن تجاويف جسمي ويسلب أعصابي.

اقترب مني شحاذ، كان يبتسم، تركت أسنانه الصفر خلف أصابعه، مثل صبية خجولة، ثم انكسرت ملامحه فجأة، وأنزل يديه خلف ظهره.

راح هذا الشحاذ ينظر خلفه مرة، ويلتفت إلى اليمين مرة ثانية، ثم وقف أمامي وقال بصوت خائف:

-أنا أعرف مكانه.

رفعت رأسي بقوة، ماذا يقول هذا الرجل؟ مكان من؟ يعرف من؟ هـــل يعني مكان صديقي؟ من يدري، ربما يرحمني هذا الكائن البائس من قتـــل نفسي والبقاء حيا سنوات أخرى؟

كنت صامتا، لم أسأله، كيف أصدق هذا القنفذ الجائع وأنا مقتول منـــذ صباح اليوم أسأل عن صديقي الذي ضاع في زحام المدينة؟.. لكنه أتعبني فعلا وهو يكرر بهدوء:

– ألا تريد العثور على سالم درويش؟

جلس هادئا، شرب بقايا ما تركت من الشاي، مد يده اليســـي قـــرب وجهي وقال:

– لا أريد منك سوى عشرة دنانير.

نظرت صوب السماء، طير واحد، ربما كان مريضا، كاد يسقط، لكنـــه عاند جناحيه على الطيران، عشرة دنانير فقط؟

ياله من ثمن بخس أنقذ به حياتي، هل تراها دموعي تلك التي نزلت حـــتى عنقي، أم كان دمي؟

– سأعطيك عشرة أضعاف ما تريد، أنت أول هدية تأتي مـــن الســـماء مباشرة. مشيت خلفه، قال لي، ونحن في المقهى:

– دع بيني وبينك مسافة، لا أريد أن يراك أي واحد وأنت معي.

كنت أمشي، مثل تلميذ، أتابع خطوات الشحاذ، يرعبني زحام البشر إذا مادخل بينهم، وأخاف إذا ما تأخر في الخروج، كان دمي في جيب واحد من جيوب هذا الكائن الغريب، يكمنه الآن مسح شـــهيقي إذا أضـــاع العنوان من ذاكرته.

كان بيني وبينه فراغ يكفي إذا ما صرخت أن يسمعني، لكنني لا أعـــرف اسم هذا الرجل، مشيت بسرعة، أريد أن تكون المسافة أقصر.

لماذا أقنعني بالخوف إذا ما رآنا أحد؟ أنا لا أحد يعرفني في هذه الأزقـــة، ولا أحد.

– على أغلب الظن – يعرف هذا المتشرد الذي يشبه الفأر..

كنت أقترب منه.

صارت المسافة أربعة أمتار، ربما ثلاثة، لكنه لم يلتفت إلى الوراء.. رأيتـــه يميل برأسه شمالا، أحسب بي وأنا أقترب، ضم قبضة يده اليسري وقـــال بصوت غاضب:

– ابتعد، ابتعد، إذا اقتربت مني، لن تراه مطلقا.

كنت أفعل مايريد، بإرادة مشلولة، حتى صارت المسافة بيني وبينه تكفي قافلة من البشر، أحدق في هذا الجرذي الجائع، وأسأل نفسي: هل يمكن حقا أن يقودني إلى النجاة؟!

(2)

من زقاق فارغ، إلى زقاق متخوم بالروائح العفنة، من محلة تغرق في مـــاء آسن، إلى محلة مهدمة غادرها حتى أشباحها، من شبر إلى شـــبر، كنـــت أمشي خلف هذا الشحاذ العجيب.. لا أدري حقيقة ما يجري في الخفاء.

مجرد حلم يتكرر في يقظتي، إنني أرى سالم درويش، الشاهد الوحيد على براءتي، نذهب سوية، ونخبرهم بما جري، أعرف أنهم يتربصون بي، ليس عندي سوى نصف يوم، أعطيهم الدليل على نزاهتي، وأنقذ نفسي وعائلتي من الموت.

وقف الشحاذ قرب بيت عتيق نصف مهدم، لم يطرق الباب، فقد كان مخلوعا ومركونا على حائط سميك.. لم يلتفت صوبي، لم يخبرني بشيء، وبقيت قرب البيت، لا أعرف ماذا أفعل؟!

تمزق جزء آخر من تلافيف مخي وأنا أنتظر هذه مؤامرة العمر، حائك ماهر يخططها ويسمرني في الأرض، ما بالها سيقاني وغضاريف جسمي، لماذا أخسر عمري وأنا مازلت في أجمل أيام شبابي؟! من يدفعني إلى التهلكة، أنا أكثرهم براءة، نافذة واحدة للصحو والنقاء وطيبة القلب..

مددت عنقي نحو أطلال البيت، رأيت (سالم درويش) يشير إلى مكاني.. كانت مساماتي ميتة كلها، أريد أن أتحرك، هذا طوق نجاتي، ماذا أريد غير هذا النعيم، وأنا أرى عنقي يتزل عن حبل المشنة؟

جاءني الشحاذ اللعين يبتسم مثل عاهرة، ملامحه انقلبت إلى حذاء مبلل، إلى ملامح رجل شبعان، وقال:

– ادخل، ماذا دهاك؟! أنه ينتظرك.

لا أدري سر خوفي وأنا أحدق في وجه الشحاذ، كل شيء تغير في أعماقي، كأنني لم أعرف سالم درويش طوال طفولتي وصباي وأيام انتمائي إليه؟

مشيت خطوة واحدة صوب هذا البيت الساقط، ثم خطوة ثانية صوب صديقي، ثم ثالثة صوب سؤالي الذي لا جواب عليه، ثم خطوة رابعة نحو مشنقتي التي اتفكت عن عنقي، أو.. هكذا ظننت..

دخلت على سالم درويش، ولم يبق من وقت أملكه، سوى خمس ساعات.. لم يبتسم في وجهي، لم أسمع منه ترحيبا ولا سلاما ولا أية ردود فعل، لم أعرفه، هو الذي أعرفه كما نبض قلبي وآلامي.

كان الشاحذ قد فارقنا، ولم يسأل عن النقود، كل شيء أمر عليه صار غامضا وغريبا ومرعبا، هل تراني أحلم؟! هذه مساحة من الدنيا لا مكان للكوابس فيها، كان يكفينا كوابس نهارتنا ويقظة ممشاعرنا.

نظرت إلى سالم درويش، كنت أريد أن أنطق بشيء، لكن وجه صديقي ضاع بين عيني، أمسكه في القلب، لكنه يتزلق من تجاويفه بسرعة.

بعد منتصف ساعة. قلت بصوت منكسر لا يناسب حبل مشنقتي الذي انفك عن عنقي:

– كيف حالك يا سالم؟ أنا أبحث عنك منذ بداية النهار.. وحدك من يعرف الحقيقة وعليك أن تأتي معي وتخبرهم بما جرى.

كان صديقي مرعوبا، أو هكذا تخيلته عند أول نظرة، قال بصوته الخشن:

–لكنني إذا أخبرتهم بما رأيت، سيقتلونني.. أنت لا تدري كم يكرهون الشهود إذا ما تعلق الأمر بمصالحهم ورجالهم.

صرخت:

– وماذا أفعل يا سالم؟ أنا لا أريد أن أموت.

– عليك أن تهرب، هناك طريق إلى الشمال، وأصدقاء رائعون ينقذونك منهم.

كانت الشمس تمشي هادئة، تمرح في أعصابي، كان سالم درويش يمشي مثلها، هادئا يلعب في بقايا أعصابي، كنت أخف وسواس روحي وأنا أسأله غاضبا:

– ألا تعرف أن عائلتي كلها تحت رحمتهم؟ هل سأنقذ نفسي وأقتلهم بيدي؟ ماذا دهاك ياسالم؟ أنت من علمني كيف أفكر بالجماهير، والآن تمنعني من التفكير حتى بعائلتي!

أجابني ينفث دخان سيجارته قرب وجهي:

– أنت أخطر وأثمن من أفراد عائلتك كلهم، نحن بحاجة إلى من يفكر.. الناس البسطاء يأتون ويذهبون بلا ضجة وبلا تأثير.

الناس البسطاء؟!

هذا المنطق الدموي السفاح؟ يأتون ويذهبون بلا ضجة.. سالم درويـــش، صديق عقلي وانتمائي، يقول هذا الكلام بعد مئات الدروس عن الإنسان وقيمته العليا، يطلب مني قتل عائلتي.

صرخت به، كنت أصرح في الماضي ودروسه وأكاذيبه مرة واحدة:

- لا أصدق ما تقول يا سالم، أرجوك لاتكرر هذا الكلام المضحك، أنت تمسك إيماني بخرقة سوداء مبللة بالطين؟

كان يبتسم:

- هذا كلام مراهق، تعلم أن العاطفة بيت الداء، نحن في محنة كبيرة لا ينقذنا من رعبها سوى المقامرة بما نملك.. أنا قامرت بنفســـي وعائلتي وأطفالي ومشاريع العمر كلها.. لا أريد منـــك ســـوى الإحساس بما نحن فيه، ولا تنتظر مني الاعتراف بما جرى، هنـــاك من يحتاج إليّ، وهم أكبر من أحلامك الصغيرة وأكبر من رغباتك المضحكة.

كنت أحدق في حبل مشنقتي، يدور حول عنقي، يدور حـــول عـــائلتي، يأخذهم واحدا بعد آخر.. كبش فداء لهذا السيد العبقري الـــذي كـــان صديقي ذات يوم..نظرت إلى عينيه، كنت على يقين أن ما يقولـــه إنمـــا يؤمن به، وليس من الممكن إقناعه مهما كان الثمن.

(3)

صحوت من هذا الخراب، على إحساس بركاني، ينفجر تحته الماضي وأوهامه وزيف ما جرى في لياليه السكرانة.. سالم درويش، هاهو، يكفر بالماضي والمحبة وأيام الجوع والتشرد والشاي العرقي الذي كنا نفطر قرب (استكانة) ذي الخصر النحيل يوم رحنا نسميه "تحية كاريوكا".

الطفولة كلها، والصبا العذب المراهق، مؤمرات المحلة ومشاكساتها والمسدسات الخشبية التي نصنعها بأيدينا تحترق الآن في ذاكرتي أمام مشنقتي وهو يدور هادئا هازئا من نقائي وغبائي:

- سالم درويش يدفك إلى الموت، دون أن ترمش أهدابه مطلقا.. لكن ماذا تفعل وأنت على يقين راسخ في المخ والقدمين أن ما قاله إنما كان يؤمن به، ومن المستحيل إقناعه مهما كان الثمن؟ أنت وعائلتك وماضيك واسمك في مهب الموت.

هل أقتله؟! أم أخبر الشرطة عن مكانه؟!

إذا وليت وجهي شطر أي مكان، وسيهرب سالم درويشن ولن أعرف مخبأه حتى يتدلى لساني وانتهي إلى الأبد..

إذا بقيت معه، أو مضيت إلى الشمال، سيقتلون عائلتي ويحرقون منزلي ويمسحون آثاري واسم عشيرتي، وليس عند من الوقت إلا بقية من ليل، يكون الصباح في آخرها آخر المطاف.

نبي في مكاني، سيعجز عن حسم هذا الموقف العسير.. أعرف أن قيمة البشر– في أسواق المنطق– تعلو عند هذا وتسقط عند ذاك..

أنا على يقين أن حياتي أعظم من حياة أبي وأخي وأختي، بل أحمد الله على موت أمي قبل أن تعيش هذه المحنة، فقد ولت في زمن الخير، لم يطرق وجدانها الخراب الذي نحن فيه..

كنت أقترب من سالم درويش، أبحث عن كلمة يسكت بعدها الزلزال الذي يهشمني ويجرح أعضائي..

كنت أبتعد عنه، أقترب من صباح المشنقة، ولست أدري كيف فتحت فمي وصرخت به:

–اسمع يا سالم، ليس عندي من حل ثالث، إما أن تأتي معي وتشهد ببراءتي، وأنت وحدك من يملك الدليل، وإما أن تقتلني هنا أو أقتلك.

قال سالم– كأنه يحفظ الجواب عن ظهر قلب–:

–أنت غير قادر على قتلي، اهرب إلى الشمال، ربما تمكن الرفاق من انقاذ أهلك..لا تفكر، وتذكر أن اغتيال أحد رجال الشرطة لا يعطيهم القناعة بقتل عائلة بأسرها.

كنت أصرخ، لا أعرف غير هذا الصراخ، ينفلت من بين لساني دون إرادتي.

– لم يكن مجرد شرطي يا سالم، أنت وحدك من يقنعهم ببراءتي، فقد كنت بينكم حينما قتلوه..

ضحك سالم:

– كنا نتعمد كل ما جرى، أنت أضعف من فينا، وليس من السهل علينا أن نفرط برفيق قوي.

لم أصدق هذا الثور رغم بروز قرنيه فوق رأسه كنت أريد قطع جسمه إلى أجزاء صغيرة، أنثرها في وجه الرياح وأنقذ نفسي من هذا الوجع الذي بات يهشم رأسي..

إذن تلك هي المؤامرة وأنا وحدي وعائلتي من كان ضحيتها.. وسالم درويش كان يدر بما جرى، بل خطط له ما دام يراني أضعف من فيهم، وإذا ما خسرت عمري لن يخسر سالم درويش إلا مجرد رجل لا قيمة له.

سبحان أعصابي! كيف تراني بقيت هادئا ولم ينفجر أي شريان ولا أي وريد في جسدي؟

(4)

مجرد فأر، يمشي إلى أنياب قط شرس.

مجرد كلب مسعور، يمشي نحو رصاصة الرحمة.

مجرد إنسان بين ملايين البشر، يمشي في طريق جلاديه.

هذا هو العمر، سنوات من حلم الطفولة، سنوات من طفولة الصبا، سنوات من ندى المراهقة، سنوات من المراهقة السياسية، ينتهي العمر عند باب السيد سالم درويش بلا نقاش، بلا عاطفة، بلا دموع.

– السياسة لا يمارسها الأطفال.

لكنني ياسالم درويش أعطيتكم نصف عمري، منشورات أرميها في آخر الليل من فتحات البيوت، مظاهرات ألاغع فيها شعاراتكم، هروب ومطاردات وأسئلة تقشعر لها النفوس، نصف عمري ياسالم درويش، وأنا أطارد حتى نفسي لئلا أخبركم، وها أنت تطردني من إحساسي بقوتي وإنسانيتي.

– السياسة لا يمارسها الصغار.

نعم، أعلم أن السياسة لكم فقط، لماذا وافقت على انتمائي؟

قلت لكم في اليوم الأول، إن أمثالي طيبون إلى حد الانكسار..

لماذا كسرتموني أنتم ولم يكسرني أعدائي؟

اقتربت من سالم درويش، كم كانت المسافة طويلة بيني وبين هذا الخرتيت الجبلي الشاهق؟! أريد أن أصدق– مرة واحدة فقط– أن هذا الحيوان السياسي الجميل كان صديقي في يوم من أيام العمر؟

أريد أن أصدق حجم خسارتي، فقد ضاع الماضي وليس من أمل إذا ما بكيت أو اعتذرت أو اقسمت أو رشوت.

كيف أعطيت عنقي إلى حبل المشنقة؟

كيف أوافق على نهايتي وأذهب صوبها، وأموت؟! هذا الدرويش السالم لا أريد له أن يعيش بعدي، لا أريد الذهاب مزحوما بالخسارة والندم..

حرام أن يعيش سالم درويش وأموت أنا..

كنت أقترب من الفجر..

ثم ديك واحد قال لي: وداعا أيها الطفل الذي أضاع رجولته في السياسة.

نعم، كان هناك ديك واحد، يقول بصوت عذب جارح: وداعا أيها السياسي الذي أضاع رجولته في الطفولة..

كنت أقترب من الفجر..

لم أكن أشعر بالخوف، كنت أريد حماية عائلتي من هذه الجريمة المحترمة.. أريد إنقاذهم، وكفى..

نظرت إلى وجه سالم درويش، ودون إرادتي، أعني دون أن أدري، وربما كنت أدري، بصقت على مسامات وجهه.. بصقت مرتين، بصقت عليه، حتى أغرقته تحت حقدي. لم أبصق طوال حياتي في وجه إنسان، سالم درويش هو الكائن الوحيد الذ بصقت بين عينيه، ثم ..مشيت.. إلى المشنقة.

أعطيتهم رأسي دون خوف، وبلا دموع، كنت أنظر صوب السماء، لم أحدق في أسفل ما أرى، أبصق على سالم درويش الذي اختفى- تماما- عن وجه المدينة.

كان قد اختفى عن حياتي وربما عن حياة غيري.

كان سالم درويش قد اختفى تماما..

لكنهم، عندما أنزلوه ميتا، كان سالم درويش يحرق نصف بغداد من أجل عيون، من أجل عيون المناضل الذي قتلوه بلا سبب..

ورغم أنهم أنزلوه عن حبل المشنقة مقتولا، فقد تمكن سالم درويش من رفع جثتي والسير بها عشرات الأميال بين الكرخ والرصافة، بين الطاطران وباب السيف والشواكة.. الرفاق كلهم أخذوني من شارع إلى شارع، من زقاق إلى زقاق، يهتفون-كما عرفتهم- بحناجر من مرمر ودماء، يسقط من؟ لا أدري.. يعيش من؟ نعم. كت قد عرفت الحقيقة وأنا ميت في تابوتي..

فقد صار مكان موتي مزارا مقدسا، وصار صديقي سالم درويش حاكما، وصارت هذه القصة- مع الأسف- غير صالحة للنشر.

***

نساء من؟

يتأنق بينهن، وإذا ما اختفى أحمد في غرفته، سوف يمسح ملامحه بالدهون كما النساء، يسقط تحت الماء وينام ثمة في نهر عميق من مغامرات صغيرة يجمعها بين كفيه أو على رفوف ذاكرة محشورة بوهم أكثر سحرا وأناقة من ثيابه الغالية "هناك نساء يرمين بأنفسهن على عنقك كما لو كن يندفعن على رأس حصان جامح، ليجعلنك تبدو كما لو كنت أنت مجنونا بهن".

لا شيء سوى النساء، حلم الصبا، خراب ماضيه وفراديس حاضر مستعجل عجيب، كلهن ولا فرق بين هدى ونسرين أو فاتن وسعاد، مشروع للمتعة والتباهي، يمشي بهن صوب شوارع مزحومة وفنادق من مرمر إيطالي نفيس، هناك حيث تراه العيون ويقرر: كم يحسد الأصدقاء؟

الوقت: من الرابعة ظهرا إلى السابعة مساء، ذاك يناسب العشاق وباعة السجائر حيث ينبغي التدخين في حضرة النساء الجميلات "نعم، ينبغي مع النساء أن تقبل أيديهن في المرة الأولى، إذ لابد أن يبدأ الصياد من مكان ما".

ويضحك أحمد، نشوة تشبه الجوع، تقرص ويتلذذ بها، لابد أن يبدأ الصياد من أي جزء في ضحيته القادمة.

في مساء السبت، أخبرته سلوى: كم يناسبه الأحمر– كازانوفا لايرتـــدي غير هذا اللون الفاجر– بينما قالت رغدة إن الأسود سيضيف عليه هالة من القوة والفروسية، فتذكرو فورا ذاك القميص الباذخ الذي احتـــوى جسد كلارك غيبل قبل أن يمضي مع الريح إلى جزيرة ميرلاند. لا يريـــد أن يخسرهن، شفة من رحيق الندي، والعليا مـــن رائحـــة الشـــيكولاته، بنطلون أسود وقميص أحمر، لئلا تغضب رغدة وسلوى، حزام عـــريض عليه نقش (الموناليزا) وحذاء من باريس، من الحي اللاتيني، أعطي فيـــه نصف أجوره عن شهر أيلول الماضي، تنسكب الطفولة هادئة من عينيه، كما ينسكب الشعر على جزء من حاجبيه "إنه من الجمال بحيث يبـــدو أنه على حق دائما".

– هل أبدو كذلك حقا؟

دفتر ناعم مزخرف بالفضة، يخفي أسراره الطيـــة، فيـــه أسمـــاء وأيـــام وذكريات نافرة لا يردها أن تهرب من بين يديه، ماذا يفعل يومها إذا مـــا جاءته ليلي وبتول وناعمة؟! ليس ثمة ما هو أسوأ من نسيان ريما وشـــذى وبلقيس، ينبغي أن يتذكر تفاصيل كل يوم أحب فيه خولة وسندسن ومن العيب – إذا لم يمن من الخطورة– نسيان أعياد ميلادهن وشراء الهـــدايا لئلا يخسرهن، وما كان من شيء أتعبه في أيام الميلاد إلا الســـادس مـــن تشرين، إذ ينبغي رؤية إسراء وسحر وسناء في يوم واحد، فكر ذات مرة أن يخبر إحداهن بأن مولدها الحقيقيكان يوم رآها وأحبها، فيربح بذلك

بعض الوقت، لولا أنه قال كلاما كهذا لأحلام وصفية وميسون ونجـــلاء ونظيمة.

قالت إيناس– وقد رأته صحبة مريم في شارع الرشيد ومرة مع راجحـــة في المتحف البغدادى– إن عليهن كشف أوراق والثأر من زمانهن الغـــبي الذي فات بين أكاذيب مغلفة بالسيلوفين وكلام معسول وأحلام بزواج عاجل تأخر أكثر من خمسة أعوام.

بعد نصف ساعة فقط– وقد تمكنت حنان من العثور على دفتره النـــاعم الذي يخفي أسراره الطرية– اجتمعن في بيت واحد وأقسمن على نسيانه وإنقاذ الحاضر– حاضرهن– من أنياب هذا الدنجوان السافل الجميل.

هيام أعطته موعدا في شيراتون، مديحة أخبرته بأنها ستنتظر عنـــد ســـينما بابل، بكت منيرة بعد أن قالت كيف علم أخاها بأمرها وينبغي أن تـــراه فورا، بينما أفرحه صوت زينب وهي تسألي عن أحواله وترجوه أن يـــأتي إلى مطعم مندرين، وما إن جاءه نداء لمياء وحنان وساهرة وهيفاء في وقت واحد حتى اكتشف اللعبة: إنه يفرضن الموعد نفسه في الســـاعة عينـــها، وكلهن ينتظرن أن يأتي، وبسرعة، كان أحمد ينظر إلى جدار أبيض، ثمة– دائما– ماليس على مايرام، ربما كان يفكر:

"أن الأمير يمكنه أن يصنع أميرة، لكن الرجل الذكي لا يمكن أن يصـــنع امرأة ذكية".

ماذا يفعل؟ إنه لا يريد أن يخسر أحدا ولا من مسامة واحدة هـو قـادر على ترك أمرك لسواه، راح يمشي ببطء، ربما بهدوؤ، يلفه حزن خفيـف يتسرب إلى داخل جسمه كما الندى، هل اكتشفن أمره حقا؟ ربما هـي محض صدفة أن تشتاق إليه سوسن وخالدة؟ ربما كان الخريف العذب قد جرهن إلى نهار ساحر يغطيه الضباب والمطر الشيطاني الأنيق؟ من يدري؟ يحب الرجل– عادة– أن يكون وحيدا، لكي يكون وحده، وتحب المـرأة أن تكو وحيدة كيما تكون مع واحد، أليس هـذا مـا قالـه السـيد (كوبرا)؟..

كان ينبغي عليه أن يعتذر منهن، لكنه لم يفعل، في لحظة من فرح طفـولي عارم لم يكتشف أن مواعيدهن كانت في وقت واحد، حسنا، سيقول إن طارئا عسيرا منعه من الوصول، وأنها– كما يعرفن– أول مـرة يتـأخر فيها.. وذاك هو الحل الوحيد..

جلس أحمد في بار عتيق، موجة من الخوف تمشي على جبل صغير، يتناثر تراب ذاك الجبل الشامخ، يختلط مع موجة من البشر، تمشـي حيـث لا مكان، راح يحتسي البيرة على مزة من الذكريات تجمعه في بحر واحد من ريكا النمساوية التي عرفها في بار مخبول، وإيرين الهولندية التي راقصته في مدينة امستردام– يالتلك الأنثي كم أشبعت رجولته في ليلـة واحـدة– وفيوليتا البلغارية التي قالت نعم من أول سيجارة روثمان، وحفنة من نساء شقروات لا يتذكر منهن سوى براسكا وليما وجوان وتلك الطلياينيـة (صوفى) الشبقة التي جعلته يبكي يوم زفافها في محطة تيريستا.

كيف يعيش بعض الرجال بلا نساء؟ اي صنف من الرجال هذا الـــذي يقنع بزوجة واحدة طوال عمره "الزواج عملية حسابية"، زائـــد امـــرأة ناقص رجل" ألا يدري هذا النوع من الرجال أن النساء كما الكـــاري، يزداد تأثيرا وحرقة ما أن تزداد كميته في كل مرة؟ الحمدلله يا أحمد: إنك لست من الصنف المسكين الذي يقنع بواحدة، وإلا، كيف يمكن للحيـــاة أن تمشي بفرح؟

ترك البار، ربما ترك شيئا من الوهم مخلوطا مع الحمص، والجبس قـــرر ان يري نهر دجلة، كم مر من حياته وهو يقطع هذا الطريق مـــع النســـاء؟ أمواج تشبه ضحكة (ميادة) الغرين الذي يأتي برائحة (مها) والنـــوارس التي يبتسم أمامها إذ يعود إل أيامه الباذخة التي عاشها مع (هالة).. كـــم مزق من الوقت هباء لئلا تغضب (ذكرى) وكم عاد متعبا بعد عشـــرات الكيلو مترات يقطها مع إيمان وعواطف؟ نساء، لا شيء سوى النســـاء، سبحان الله كم تختلف المرأة حينما تكون زوجة "الزواج عائلة مكونة من سيد وسيدة وعبدين، بينما المجموع كله اثنين فقط"!.

فجأة عند النهر، رأى نفسه أمام بنت في العشرين، أحلى مـــن نصـــف ماضيه، سلة من فواكه كانت، تشم خلف خطاها رحيق الرمان، ثيابهـــا البيض تشير إلى جسد ناعس لم يمسسه بشر، كيف تراه ينطف في حضرة هذا الجمال، ومن ترى يملك اللسان الذي يمكنه أن ينطق الآن؟

كان يمشي وراء الهواء الذي أنعشه وأطربه، الهواء المزحوم بطعم الصـــبا وعطر الطفولة، طعم الخريط والساهوةن، بيض اللقلق وشـــعر البنـــات،

رائحة العنبة، والصمون الساخن، أيام كانت السعادة كلها بدرهم واحد، لم يكن خلف ظهره من شيء يمنعه عن تلك الفريسة، فقد آن له أن يجرب دور الصياد مرة واحدة في حياته، تاريخ من مطر وأبواب مفتوحة، كانت البنت الساحرة تمشي، تنمو وهي تمشي، تزداد جمالا وهي تنظر صوب النهر، من أين يجئ هذا النوع المستحيل من النساء؟

يمتد به غرين النهر، يفتح أزرار قميص للريح، جريمة لا يغفرها القلب: إننا نسينا النهر ولم نعد نحدق أو نفكر فيه، كان أحمد ينظر إلى جسد البنت الشهي، إنها تدور في مساحة ضيقة، النهر والسماء كانا حدود عينيها، أراد أن يقترب منها، أن يشم هذا الشجر الشرير الذي صار يفتك به، إنها تنتظر، كل شيء يقول له: إنها تنتظر، فستناها القرطبي المجنون، أصابعها الخائفة، نظرة عينيها إلى النهر والسحب الباردة، وفكر أحمد: أن حياته كلها حالة انتظار مريض، انتظارهن في الليل والنهار، لا شيء سوى انتظار النساء.

وكاد أن يضرب نفسه، أن يصفع هذه الرأس التي عاشت في الوهم ونامت تحت سقفه سنوات، يالبلاهة!، يا للبلاهة يا أحمد!، ستموت ولن تعثر على لحم بهذا الكبرياء.

راح يقترب من المصير الغامض اللذيذ، يقترب منها، تزداد رائحة الصبا، تتناثر فوق المساء الذي يأتي مغازلا وطربا، لكن البنت الحلوة وقفت قرب نخلة سامقة وراحت تنظر إلى نهر دجلة، أراد أحمد أن يقترب أكثر،

لا يريد أي شيء من هذا العالم غير أن ينطق هذا اللسان مرة واحـــدة في حضرة النساء.

ثمة رجل جاء من بعيد– من أين يأتي هؤلاء الوحوش؟ جاء كما المطر، مد أصابعه من خلف البنت الحلوة وأغمض عينيها بيديه، من يملك الحـــق في أن يكون له نصف هذا الثراء البهي؟ قالت البنت الحلو وهي تضـــحك: لماذا تأخرت يا سامر، أيها اللعين لن أغفر لك، قال لها سامر: أحبك يـــا بشرى، أنا أحبك جدا يا بشرى.

ثم اختفت معه خلف ضباب شفيف، اختفى معها، كلاهما كان قد اختفى تماما من أمام عينيه، سامر وبشي، اختفت البنت الحلوة مع سامر وهمـــا يضحكان بصوت عال، تاركين خلفهما أحمد الذي راح يكتب في دفتره الناعم الصغير، في دفتره المزخرف بالفضة، كان يكتب اسم بشرى!

***

خصائص النوافذ

"ينبغي علينا أحيان، أن نتحدث إلى المرأة حسب درجة أنوثتها، تماما كما ينبغي أن نتحدث إلى المجنون حسب درجة جنونه".

برنادر شو

هل رأيتم قصة قصيرة تعاند كاتبها على أن تكون ممنوعة من النشر؟

قلت لها: ياسيدي القصة، أرهقني رفض كتاباتي، أريد أن أرى نتاجي منشورا، فقد ازداد حجم أوراقي المرفوضة، وصارت تزاحم دولاب ثيابي ورفوف مكتبتي وطوابق ذاكرتي.

قلت: سأكتب القصة، عساني أتمكن من إقناعها والسماح بمرور حروفها وأبطالها إلى النشر!

(1)

كنت أعرف أنها تراني من خصائص نوافذ البيت، شرخ في زجاج المطبخ ينثر رائحة الطعام، خشب أكلته الديدان، في غرفة نومها، أسمع صراخ ابنها "داود" ولثغ ابنتها "كوكب" التي سميتها المعجزة.

طفلة في العاشرة كانت كوكب، تكتب الشغر، تعشق الكلاب وتفهم أسرارها، وليس في بيتهم أي كلب، تفكر نصف دقيقة أمام أي سؤالي، ويأتي جوابها مربكا لاذعا وغريبا لا يناسب عمرها أبدا.

في الليل، بعد منتصف الليل، يسكت المذيع وينكسر السلام الجمهوري في بدايته، ينام داود وكوكب، وأنا في بيتي، أعرف أنها ستراني إذا أبقيت نور غرفتي، فقد مررت ذات مساء على شعاب وانحناءات وزوايا (بيتها) يوم أنقذتهم من الفئران و(الأرضة) ورممت لهم بعض الشروخ والثغرات التي ينام فيها النمل والصراصير: في ذلك المساء، وأنا في دارها، رأيت غرفة نومي، والممر الضيق بينها وبين الحمام، كل شيء في بيتي مفضوح أمام بيتها.. لكنني أبدا لم أتذمر، ولم أغضب، البيوت العتيقة كلها تتشابه في الرداءة، أل بعضها إلى لسقوط، وغيرها من المنازل الفقيرة ينتظر زمان موته على نبض ساكنيه.

رجعت إلى بيتي، في ذاك المساء، أفكر في سيدة البيت (امرأة في الثالثة والأربعي، كل سنة من سنواتها تشتعل أنوثة، كم كان غبيا زوجها، يوم عافها بعد موته ولم يقتلها؟).

(2)

كانت (فاطمة) أجمل امرأة في المحلة، رغم عباءتها وثيابها السود التي تغطي لحمها، رغم حزنها وانكسارها وصمتها– وكان مفروضا عليها أن ترسمه على ملامحها – وربما، إذا ما أخذت بعض نصيبها من الحياة، تكون

فاطمة واحد من أخطر نساء بغداد (جسد قوي، نافر، عندما تمشي في زقاقنا، تشعر أنها تركت في كل شبر وراءها عطر أنوثتها وشيئا من سرها الذي راح يكبر بعد غياب زوجها العجوز).

كنت أقرأ في جريدة قديمة مزحوم إلى عنقي برعسة تشبه جسم قطار على سكة من حديد، طالت المسافة بين رجولتي ورغباتي، أكتم فحولتي خلف قناع يبتسم بلا سبب، أدري أن فاطمة، والساعة بعد منتصف الليل، يمكنها أن تراني وأنا أقرأ، كنت أريد أن أتعرى من ملابسي، أريدها أن تفكر به، أن تشتمني أو تشتهيني، أن تطردن من رأسها أو تسحبني إلى بيته.. كنت أفكر (أن ينقلب هذا الهدوء الكاذب فقد أرهقني ما أفعله بنفسي حينما أغرق في ظلام غرفتي وفراشي).

مر الوقت بطيئا، جسدي أصابه الحمي، وأنا قطار يهتز على سكة من ذل وشهوة وإحساس قاس بالخسارة.. رميت نفسي على فراشي، لم أفعل أي شيء، كنت أعاند أعضائي أن يهدأ هذا الشلال المنوي ويخرس هذا الجوع ليلة واحدة، عساني أتمكن من التفكير صباح هذا الليل العفريت.

(3)

رجعت إلى بيتي، نهار الخميس بعد وقت قصير قطعته في عملي، كنت أفكر– مخبولا– بالزواج منها، اشتريت في طريقي قنية عرق زحلاوي، ونصف دجاجة..صديق أعزب قال إنه سيقطع أول الليل معي، نسكر

ونثرثر ونرحل صوب النساء والمدن العظيمة والسحب الزرق التي سنطير عليها من أول كأس نشربها.

جاء المساء، ولم يطرق الباب أحد.

إحساس بالوحشة داهمني، كاد يبكيني، لماذا أنا وحدي؟

مقطوع من شجر العالم كله، أهلي في البصرة ونصف أقربائي في العمارة، والنصف الصاني لا أعرفه مطلقا.

نظرت إلى مائدتي الصغيرة، نصف دجاجة تئن من النار التي تسربت إليها (رائحة الأغنياء تملأ البيت الصغير) العرق الشمالي، واللبن الممزوج بذكرياتي، وأنا وحدي، مركون في بيت آيل للسقوط، في زاوية هاجمهاشبق عارم، أفتح باب البيت عساني أعثر على خطوات صديقي، لا أريد أن أشرب الخمر بمفردي، رأسي يدور حول بيوت الزقاق، كيف يسكن هؤلاء البشر– وأنا بينهم– في هذا الخراب المؤجر.

في الثامنة مساء– وكان وقت صديقي مازال مفتوحا أمام ذاكرتي– سمعت طرقا ناعما على باب بيتي، من أين جاءت هذه النعومة إلى أصابعه، كان ملاكما ومناضلا واشتغل نجارا ثم موظفا بائسا في مخزن الوزارة؟

فتحت الباب، رأيت (المعجزة) التي اسمها كوكب، تقول:

– هذا هوبيته.

قال صديقى:

– لا أدري كيف نسيت بيتك، طرقت باب الجيران، وجاءت معي هـــذه الحلوة كوكب لم تزل عند الباب، سمعتها تقول بصوت ذابل:

–أمي تريد سكينا، إذا سمحت.

قلت لها:

– تعالي، خذي من المطبخ ما تريدين، هناك أنـــواع مختلفـــة مـــن السكاكين.

قالت:

– أنا لا أعرف، أعطني واحدة؟

كان صديقا، يشبه تمثالا من شمع، لا مكان ينظـــر إليـــه ســـوى وجـــه (كوكب)، قلت له:

– تفضل أنت لماذا تأخرت؟

خرجت كوكب، لكن صديقي لم يخرج من قالب الشمع، قلت بصـــوت قوي:

– ماذا دهاك يا عبد الرازق؟

لم يكن هذا عبدالرازق الذي أعرفه إنه يقول بلا حياء:

– هذه أجمل بنت أراها طوال عمري.

قلت:

– هذه طفلة عمرها عشرة أعوام.

– أكثر يانوري، هل رأيت أفخاها؟ ليس هذا جسم طفلة في العاشرة يا نوري!

(4)

انكسرت بين ضلوعي أفعى قديمة، حطمتها بوعي عظيم وصبر أعظم، هل تستيقظ أفعى محطمة ميتة؟ ما بال هذا الصديق المرض؟ أنا لا أعرفه إلا منذ وقت قصير، رمته الوظيفة على غرفتي، صار قرب يدي، نثرثر كل يوم في مئات الصغائر، لكنن أبدا لم أسمعه يحكي عن النساء إلا مرة واحدة، ربما مرتين، لم أنتبه يومها إلى نمط الكلام الذي قال، لكنني أتذكر أنني ضحكت على كلام لم أصدقه، أو أنني لم أكن أريد أن أصدقه، ونسيت يومها كل شيء.

هو الآن في بيتي يشتهي ابنة جاريتي ويغرس عينيه في لحم فخذيها بلا حياء– وأيضا– بلا إحساس بالعمر الذي مر منه ما يزيد على نصفه.

نظرت إليه وأنا أعتني بكأسه:

–لا أحب هذا النوع من التفكير.. المدينة مزحومة بالنساء الجميلات، كيف تفكر في طفلة في الصف السادس؟

ابتسم عبدالرازق، كان يشرب الخمر بسرعة، كن يريد أن يغرق فيها، قال وهو يمد أصابعه إلى علبة السجائر:

-لا أصدق أنك لا تفكر فيها.

جرجرني غضب ناعم، خففه الخمر الذي كنت أحتسيه، من يدري كيف يكون إحساسي- أمام هذا العربيد- لوكنت صاحيا؟!

خذلني العرق الزحلاوي، رماني إلى حال لا أريد أن أكون فيه، اعترفت بإحساسي وحبي الخائب لهذه السيدة جاريتي..

كان صديقي يضحك، لا أفهم سر ضحكته التي امتدت وطالت وربما وصلت بيت جاريتي، لم أكن أعرف ما يفعله العرق الزحلاوي إذا ما شربت أكثر مما اعتاد جسدي؟

لكنني غفوت على حليم سريع باهر رأيت فيه نفسي (أطير فوق بيوت بغداد، أرى بيت جاريتي وأختاره ميناء أنزل فيه.. كانت فاطمة تلبس ثوب النوم، تنتظرني على سطح بيتها..)..

لكنني حال نزولي، سقطت على كأسي المملوء، وانسكبت الخمرة على مائدتي، صحوت.. لم يكن هناك صديقي، ربما طال زمان حلمي، لست أدري لكنني تركت الخمرة والطعام، وذهبت إلى فراشي.

رميت نفسي، أوربما أسقطني الخمر على سريري الذي انكسر فورا بعد دقيقة واحدة، بين يقظة مخمورة وحلم سكران، رأيتها فوق رأسي ترفعني وتسأل بصوت مجروح:

–هل أنت بخير؟

ثمة جرح صغير، لم أنتبه إليه، سال منه دمي وتفرع هادئا على أصابع فاطمة، من أعطاني هذا العرق الفاسد ورمان فوق كوابيسي وشل أعصابي وعقلي؟.. من ين جاءت هذه المرأة التي تقول:

–هذا شيء لم تفعله من قبل يا سيد نورى!

هي تشبه جاريتي، لكنها تهتز مثل راقصة، لا أكاد أجمعها أمام بؤبؤ عيني حتى تنسل مثل طير جارح، من سقاني هذا الخمر المغشوش؟ كيف أصحو من هذا الصداع الرهيب؟ لماذا لا تبتعد هذه المرأة المخبولة؟ .. أريد أن أنام ألف سنة عساني أهدأ من هذا الورم الذي أثقل رأسي.

كان فراشي دافئا، أرفض تشبه غابة، شعرت بشيء يشبه الأصابع يمر على جبيني، يباركني، يقول لي:

–غدا ستكون بخير– إن شاء الله– يوم الجمعة خير علاج، يمكن النوم حتى آخر النهار.

(5)

لكنني صحوت في التاسعة، جندي مدرب على زمن عسير، في صباح الجمعة كاد يقتلني خجلي، ماذا سأقول؟ أي جرح عميق في كبريائي وأنا أتذكر ما فعلته جاريتي في آخر ليل البارحة.

إنها أول مرة أشرب فيها الخمر داخل بيتي، كنت أشربها بين شهر وشهر، أختفي بعدها في الشوارع الخلفية والفنادق وبقايا حدائق الأمس.. لكنني أبدا لم أفعلها في بيتي، بل وأمام جاريتي أشتهي مجرد همسة إذا ما تكترمت بها..

قلت: سأعتذر، أشتري شيئا معقولا، أطرق باب بيتها، وأقول عفوا عما فعلت، أعطيها هديتي، ثم أرجع إلى بيتي، أجلس حزينا علها تراني من وراء خصاص نوافذها وتفهم حجم اعتذار وأسفي.

كلا، ربما أغلقت الباب في وجهي، أو رمت الهدية على كبيريائي أو ربما سخرت مني، أنا لا أعرف مزاجها، ولا أفهم كيف تستقبل اعتذار أمثالي.

لكن العلم، هذا العالم الصغير الذي أعيش وأحتمي به داخل جدران بيتي، انفجر كما البركان مرة وسال أمام غروري مثل شلال من ماء صاف نقي مرة ثانية، أنا أصغي إلى طرق خفيف على باب بيتي:

قلت: إنها فاطمة.

رحت أركض عبر مسافة طولها لا يزيد على ثلاثة أمتار، هي البيت كله طولا، ثم وقفت ألهث عند الباب، أسأل نفسي: ماذا سأقول؟ إذا كانت فاطمة من يطرق الباب. كيف سأبدأ الكلام، بل، ماذا تريد من فاطمة بعد ليلة ملوثة بغبائي؟! فتحت الباب، كانت فاطمة ملفعة بأجمل عباءات الكون، تحت العباءة فستان أحمر مرقط بالسواد– انتهى زمان حزنها على زوجها إذن– رأيتها بعيوني كلها، نظرت إليها بإحساس طافح لا ينساب اعتذاري.. كان الوقت بين الصمت والكلام أطول مسافة عن نجوم السماء، قطعت هي رحلة الصمت الفاجع وقالت بأنوثة لم أسمعها مطلقا في حياتي:

–كيف أصبحت اليوم؟

ثم قالت:

–أنت لا تناسبك هذا البلاء.. لماذا تشرب؟

حمار صامت، لا نهيق ولا زفير، قلت وقد أنقذني شبقي:

–أنا آسف.

أنا آسف حقا، على ضعفي وسكوتي، فقد مر الوقت سريعا قاسيا، لم أتذكر طواله أن أقول (تفضلي) فقد زاحمني غبائي ولهفتي.. لكنه مدت يدها وأعطتني السكين التي أخذتها ابنتها كوكب وقالت:

–شكرا سيد نوري، لقد اشتريت مثلها.

ماذا دهاني؟ أي بليد في العالم يمكنته أن يحكي قصة في حضرة هذه الطاغية.. لماذا وحدي من يسكت ويترك هذا (الجبل) الشامخ ملفعا بعباءته عند باب بيتي؟

فجأة، راح الحمار الذي يسكن أعضائي، ينهق ، يتأتى، ويقول:

-أرجو أن تشربي الشاي معي، تفضلي إلى بيتي الفقير..

دخلت فاطمة، ملامحه تصرخ: (أيها الغبي، كان عليك أن تتحرك قبل دقائق) .

لكنها قبل أن تجلس على أقرب كرسي في البيت، قالت:

-ابنتي كوكب لا ترتاح إلى أحد من أبناء المحلة، لكنه تقول بأنك أحسن منهم، لا أدري لماذا أخبرتني بما (ترتاح) إليه كوكب؟ هي حالة من ردود الفعل حتما، يستلفها الإنسان حتى يرحم نفسه من الارتباك والخجل..

قلت بسرعة مثل تلميذ فاشل..

-أنا أحب كوكب أيضا، إنها ذكية وعاقلة..

ورغم أنفي، تذكرت كلام صديقي عبدالرازق، عن أفخاذ كوكب، وعمرها الذي يزيد على العاشرة، ونظراته الوقحة الداعرة، ودون إرادتي، رحت أسأل فاطمة:

-كم عمرها الآن؟

قالت فاطمة بشيء من البهجة:

–اثنا عشر عاما.. فقد تأخرت سنة واحدة عن المدرسة عندما مات أبوها.

نظرت إلى فاطمة، وجه إنسان يعتذر عن موت إنسان لا يعرفه، مجرد إجراء رسمي لابد منه، فقد سلبتني (كرامتي) أقوال صديقي عبدالرازق.. قلت في سري:

– لعنة الله عليك يا عبد الرازق، إنك تعطيني أقذر أمراض الكون..

رفعت جسمي كن يرفع حفنة من أمراض مكدسة، وقلت لها:

– دقيقة وحدة ونشرب الشاي.

كانت ملامحها تبتسم:

– اجلس أنت، أنا أصنع الشاي على طريقتي.. وأرجو أن يعجبك.

غالبني الشك في أمرها: أرملة تدخل بيت إنسان عازب، تصنع الشاي وتثرثر، تلبس ثوبا مغريا وكلاما مثيرا، وترسم فوق ملامحها ابتسامة (أنثى) لا تريد أن تكبر أبدا.

أريد أن يسقط هذا الشبق المجرم، فقد صار يكسرني ويكسر نصف كلماتي، إنه يمنعني من الوقوف شامخا أمام هذه المرأة.. يأخذ من شريان

رجولتي وكبرياء وجهي، ويجعلني مثل طفل سخيف يبتلع الحروف أمـــا أقسى معلميه.

طاردني الشك.

ليست هذه مجرد امرأة تسال عن صحة جارها، إنها تدخل بيتي، وتجلـــس قرب غرفة نومي، ترى فراشي على بعد متر واحد، من يـــدري مـــاذا ستقول إذا أخذتها الآن إلى غرفتي وتنزع عنها قناعها وثوبها الأحمر المرقط بالسواد؟!

هل أملك الشجاة وأبدأ هجوما لا يناسبني؟! شربنا الشاي معا.

عجيب ما تفعله المرأة حقا، فهذا الشاي الذي أشربه منذ طفولت لم يكن هذا طعمه أبدا، لمسة أنثى، رائحة غاية في شتاء ماطر، رشفة مـــن هـــذا الشاي العراقي أعطتني من الشجاعة ما يكفي عشيرة..

قلت:

-لم أشرب شايا كهذا طوال حياتي.

ابتسمت كانت تغطي فمها عندما تبتسم:

- إنه شاي لا يختلف عن الشاي الذي تصنعه في البيت، ربما يسبب (الهيل فقد كان معي ثلاث قطع منه.

نظرت إليه، رائحة (الهيل) ودون إرادتي خرجت من فمي أغـــرب مـــا نطقت به من كلمات:

– أريد أن أتزوجك يا فاطمة.

كان قد استكان الشاي بين أصابعها، لم يسقط، كنت أنا الذي سقط نيابة عنه، فقد شعرت أن الدنيا انقلبت فوق رأسي، لكن فاطمة ابتسمت ثانية وقالت:

– تتزوجني من أجل الشاي؟ سيأتيك الشاي كل يوم ومتى تشاء..

لم أفهم، هل كانت ترفضني، أم كانت تهزأ بي؟!

صار عقلي يطارد شبقي، ربما كان العكس، لكـــنني خســـرت شـــيئا في أعماقي لم أفهم نوعه، غير أني رأيتها ترفع جسمه وتقول:

– هل تحب الشاي إلى هذا الحد؟

كنت أريد أن أصرخ بها (أنا أحبك أنت) لكن راحت تمشي هادئة، تفتح الباب وهي تقول بصوت ناعس دون أن تنظر خلفها:

–ممنونة سيد نوري.

ممنونة؟!!

أنا ياسيدتي من يقول هذا الكلام، ماذا سأفعل دون أنفاسك وقد زاحمت هواء بيتي وعلمتني كيف يكون الشهيق.. أنا منون إلى نهاية عمـــري إذا تزوجت منك.

لكنه أغلقت الباب، راح عطرها يمشي وراءها ويترك ندي خفيفـــا يمـــلأ البيت، يختفي بين شقوق الحيطان، يخبرني أن الدنيا بلا فاطمة ليســـت إلا ورما سافلا وأشباحا وأفعالا سرية حمقاء ورجولة معطلة

كنت أضرب باب بيتي، أصرخ في سرداب عميق من جسدي، ألهـــث، أردد مثل شحاذ:

–تافه كل يوم يمر عليك يا نوري، رخيص كل جزء من حياتك يانوري.

نعم، هي قصة تعاند كاتبها على أن تكون ممنوعة من النشر وأنا– كمـــا ترون– أترك أمرها، لا شأن في بها، فقد خرجت مـــن سلاســـل إراديتي، وراحت تسرح وتمرح كما خلقه مبدعها دون ماكياج ودون تجميل، إنو عليها أن تصلكم صادقة نقية من شوائب الخيال، بريئة من ذنوب الشكل عساها تقول ما تريد وأنقذ نفسي من حسابكم وحسابه العسير.

(6)

مساء، في السادسة، تاريخ محفور في جلد العمر، لا يمكن أن تنساه خلايا جسدي، كان باب بيتي يئن من شقوقه تمرح فيه (الأرضية) جئت أمسحه بخرقة مبلل بالنقط، وقبل أن أمد يدي رأيت كوكب تمشي ببطء مضحك وهي تحمل قدحا من الشاي على (صنية) صغيرة..

اقتربت منها أخذت الشاي بسرعة كنت أسمعها تقول:

– أمي تسلم عليك، وتقول: هذا الشاي مملوء بالهيل والنعناع.

مر في ذاكرتي وجه صديقي عبدالرازق، ودون وعي قلت لها:

– تعالي ياكوكب..

ودون أن تسألني أو تعاندني، دخلت بيتي بطفولته ونضارتها وصباها المبكر، ارتعش جسدي، رأسي يدور، ماذا دهاني؟! إحساس لص وهواجس قاتل، كلام صديقي عبدالرازق مثل أذان صاخب رهيب.. ببغاء سافل يكرر:

– لا أصدق أنك لاتفكر فيها، لا أصدق أنك لا تفكر فيها..لاأصدق! نسيت الشاي على رف من حجارة، وأنا أحدق في كوكب، لا أعرف معنى سؤالها:

– من يساعدك على تنظيف البيت؟

قلت لها:

– أنا وحدي.

وتذكرت كلام عبد الرازق، أصرخ به أيها الكلب، اخرج من رأسي، لكن هذا الببغاء المريض، يكرر بصوت خبيث:

–ليس هذا جسم طفلة في العاشرة يانورى..

ابتعد أيها الملعون، ابتعد، هذه حماقة أكبر من أخطائي كلها، لا أريـــد أن أسمعك، لا أريد أن أراك.

كانت كوكب تبتسم وهي تقول:

–ما بك (عمو) نوري؟ أنت تهز رأسك.

و..

استيقظت من رعشة جلدي، فقد قالت (عمو) وذكرتني فورا بالمسافة بين عمري وطفولتها.. مددت يدي وشربت شاي أمها وأنا أقـــول بصـــوت محترم:

–رأسي يوجعني يا كوكب.

هدأت، كنت أريد أن يأخذن فراشي إلى النوم.. لا أريد أن أصحو أبدا، فقد تغير هذا العالم حولي وصار حرماني يأكلني قطعة إثر قطعة..

أعطيته قدح الشاي وقلت بخوف:

–اذهبي يا كوكب، اذهبي الآن، قولي إن (عمو) نوري (ممنون) جدا.

خرجت كوكب.

كنت أنظر إليها، إلى جسده اليافع المنتصب، لم يكن عمر هـــذا الجســـد الجميل إلا عمر حرمان وخساريّ.

عند الباب سألتني كوكب.

-هل تحب الكلاب؟

نظرت إليها، تذكرت أنها تفهم أسرار الكلاب- هل تراها تفهم سري؟! قلت بصوت عجوز منكسر:

هل تريدين كلبا؟

قالت:

-لا، أنا أحبها وهي بعيدة عني.

ثم اختفت كوكب وراء بابي ورعشة جلدي.

رميت نفسي، مثل ممثلات السينما على فراشي، غطيت جسمي أرتجف، بردا وشيقا، كنت أخاف أن تراني فاطمة من خصاص النوافذ وأنا أنقذ تاريخ من هذا الورم الذي تسلق أفخاذي وصار يرغمني على مد أصابعي تحت غطائي السميك.

(7)

صارت أيامي كلها، منذ صباحاتها إلى مساءاتها، إلى فجرها التالي مكهربة، مرتعشة، يمتزج فيها الحب والرثاء، الفرح والنفور، يأخذني إحساس إلى النوم ويوقظني هاجس مبهم من فراشي، أغسل جسدي بلا سبب معقول، أمشي في مساحة لاتتسع- إذا كانت فارغة- حتى لكلب آخر.

ضاق بي جسدي، كان يضربني، أحس به يشتمني، جسدي لا يريد هـذا الجبان الصامت الذي لا يفعل أي شيء أمام هذا الثـراء البـاذخ مـن الأنوثة والنضارة واللحم الرباني الناعم.

خرجت إلى الزقاق، روائح البيوت لا تتشابه، أحب رائحة بيتي، حيطانه العتيق، يتسرب منها عطر فاطمة وابنتها المعجزة.. ماذا يـدور في هـذه الدنيا الصغيرة، ماذا يفعل الناس في الغرف المغلقة؟ لماذا لا أفعل مثلهم؟

اشتريت برتقانا وشيكولاتة، قلت أعطيها عندم يـأتي الشـاي المغمـس بالهيل.. مساء خبيث، ليس هذا نوري الذي أعرفه، هل تـراني أشـتري المحبة بهذا الثمن المضحك؟

كان الزقاق يثيرني، يعطيني من الفرح ما يكفي إنسانا فقـيرا مثلـي.. لا أريد أن أفارق هذا المكان، لمن أعطي وصيتي (أن أدفن في هـذه الأرض المسكينة)..

أعشق الجدران والأبواب المزخرفة بالمسامير، إنني جزء من هذه المحلة، لا أعرف كيف أعيش خارجه.

برتقال وتفاح وشيكولاتة، رأيت نفسي في مرآة مشروحة، لاأدريكيف يراني غيري، لكنني في جزء من هذه المرآة، مازلت أحتفظ بشبابي، عينان صغيرتان، يشع منهم شبق حارق، شعر أسود كثيف، ورثته عـن أب لم يكبر حتى موته، أنف مدبب يقطع وجهي إلى شطرين: عاشق ومجرم..

هل تراها تحب هذا الوجه، أم أنها تحب هذا الشبق النافر من ثيابي؟!

هل تراها تفكر بي فعلا؟! إنني أرسم في خيالي إغراء لا يشاركني أحد فيه، وأفترض أحاسيس لاتمر في جلد إنسان سواي (وهم) يطـــارد أوهامـــا، وأنف لا يشم سوي رائحة مسامات، ويشهق مبتـــهجا: إنهـــا رائحـــة المحبوبين.

اختلط الرأس بالذيل، وصار الصياد فريسة، ليس من طائر في الســـماء، غيوم بلا مطر، رأس يدور، فاطمة أم كوكب؟ هذه المرأة الطفلة، أم تلك الطفلة المعجزة؟!

أحمق يريد أن يختار، من أين لي حق الإختيار، أنـــا لا أملـــك إلا خيـــالي وأحاسيسي وأوهامي؟

(8)

في بيتي، غسلت التفاح والبرتقال، لم أغسل فاكهة طوال عمري، غسلت برتقال فاطمة وتفاح كوكب.. كنت أمد أصابعي حول التفاح والبرتقال كمن يدها فوق مساماتهن، أصابعي تنتقل من ثغرة هنا إلى ممر هناك، طال الوقت وأنا أغسل نهودهن وأحضن أفخاذهن بين أصابعي، رجل أعزب، موحش كل شيء في أيامي، بارد نصف نهاري، وفقيرة كل اليالي، كـــان التفاح يلامسني والبرتقال يدغدع جلدي المعطل منذ نعومته.

أيقظني من هذيان مخي، رذاذ الماء الذي تساقط بين ثيابي... تســـرب إلى حلمي

إلي هذا الوقت المسحور الذي انقطع فورا وأنا أصغي إلى باب بيتي رحت أفتحها، كان الحلم الصغير مازل يسري هادئا في زاوية من نفسي، لم يكن من أحد وراء الباب، لم أستغرب، أطفال المحلة يفعلونها دائما ويهربون.. تلك واحد من متع الطفولة.. لكن الطرق عاد ثانية، لم أفتح، رحت إلى البرتقال أمسحه من الماء، أنشفه على صحن (فرفوري).. بين برتقالة وأخرى، أنظر إلى الصحن وأترك تفاحة بينهما أرسم المنظر بهدوء عجيب وفرح أعجب..

من أين يأتي هذا الفرح، يغمرني ويطغي على تصرفاتي.. حتى إنني نسيت الذهاب إلى مقهي المحلة، فقد صار بيتي أجمل غابات الدنيا وأعذب أنهارها، هو البيت الققير الساسط قبل أوانه!

تكرر الطرق خفيفا على بابي، قلت بصوت عالٍ مثل ممثل على خشبة مسرح:

–من الذي يطرق الباب؟

سمعت صوتها، ناعما، يطرق أبواب شهوتى:

–أنا كوكب..

فتحت الباب، ألهث مثل كلب مطارد:

–أهلا كوكب.. تعالي، ادخلي.،

كان عقلي يسرح في بحر من أشتات قـــذرة، طفحـــت رائحـــتي فـــوق ماسامات جلدي وأنا أحدق في ممرات جسمها، أنظر- هذه المـــرة- إلى جزء منفلق طري وأمسك رأس إراديّ عساني أنقذ كبريائي من صـــوت صديقي يكرر مخبولا:

-ليس هذا بجسم طفلة.

يصرح في الجزء المريض من عقلي:

-لا أصدق أنك لا تفكر فيها.

نعم، كان عبدالرازق على حق، لعنة الله عليـــك ياعبـــدالرازق، فقـــد أخرجني من وراء قناعي، وهو هو يفضحني أمام ضميري ويمسخني مجرد ذئب مسعور ليس من فروق سوى وجه بشري ولسان ماكر صار يقول دون إرادتى:

-هل تدرين أن حلوة يا كوكب؟

قالت:

-أمي تسأل: إذا كنت بحاجة إلى شراء شيء من أســـواق الكاظميـــة.. سنذهب إلى هناك بعد قليل.

عجيب ما تسأل، إنها أول مرة تسألني فاطمة شيئا كهذا، لكـــن ابنتـــها كوكب لم تلتفت إلى كلامي، أعطيتها البرتقال والتفـــاح والشـــيكولاته وقلت لها:

–خذي يا كوكب، قولي إنني أشكرها جدا.

نظرت كوكب إلى الصحن المملوء بالتفاح والبرتقال، ابتسمت وهي تقول:

–لابد أن أسأل أمي قبل أن أخذها.

مددت يدي بالصحن وقلت بصوت صارم.

–خذي، إنها شيء بسيط.

عند الباب قلت كمن يخاف على شيء ثمين من الضياع:

–كوكب، قلت لك هل تدرين أنك حلوة؟

نظرت إلى وجهي، هل تراها اكتشفت وجه الذئب النائم بين طيات ملامحي؟! قالت:

–بنات المدرسة أحلى مني.. لكن (إسراء) صديقتي تقول: إن جسمي.. ثم أغلقت فمها، كنت أريد أن أسمع ما يقال عن (جسمها).. طفل يطارد لعبة لا يملكها أحد فيالدنيا كلها.

قلت بسرعة:

–لا تخجلي يا كوكب، ماذا قالت إسراء؟

في تلك الدقيقة، سمعت الكلام الذي أريد:

–صديقتي إسراء تقول إن جسمي لا تملكه أي بنت من بنات المدرسة.

ثم قالت بسرعة كأنها تعتذر:

–صديقتي إسراء أكبر كاذبة في المدرسة.

ثم خرجت مع البرتقال والشيكولاته، والتفاح، بقيت بعدها عند البـــاب محنطا مثل مومياء، دبيب في خلايا رأسي يكرر:

–إسراء لاتكذب أبدا.

(9)

بعد خمس دقائق فقط، أنا المحنط عند الباب مثل مومياء رأيـــت فاطمـــة تبتسم، هل تراني فتحت الباب أم تراها دخلت كما الهواء مـــن شـــقوق الحيطان؟

قالت وعباءتها تغطي رغبايّ:

–ألا تريد زيارة الكاظم؟

غريب أمر هذا اللسان الشرقي، كيف يعرف الجواب على سؤال كهذا:

–بالعكس، كنت أفكر بالذهاب ليلة أمس إلى الكاظمية..

وفي (الكاظم) كنا سوية، أنا وكوكب وفاطمة وابنها داود، عائلة واحدة، لم يكن في العالم كله من رجل أسعد مني..

في (الكاظمية) كظمت شهوتي، وارتفع الحب وحده، صار يصب في قناة مظلمة من شرايين جسمي.

في داخل حضرة الكاظم، كانت كوكب تدور حول رفات الإمام، نظرت إلى فاطمة، كان ابنها نائما على فخذها، وقلت هادئا مؤمنا:

–أنا مازلت عند رأيي في الزواج منك.

ابتسمت، هادئة، مؤمنة، وقالت:

–هذا كلام لا يقال في مكان كهذا.

قلت مثل تلميذ نجيب:

–بالعكس، أنا أحتاج من يباركني، وخير من يباركني الإمام.

قالت فاطمة: ربما كانت السحب البيض فوق قباب الكاظمية هي التي قالت:

–أنت إنسان ممتاز سيد نوري. ماذنبك وأنت تصح (أبا) قبل زواجك؟

قلت ثانية مثل تلميذ نجيب:

–ماذا أفهم من كلامك هذا؟

لم تنطق، كانت ابنتها بدور مثل درويش حالم حول رفات الإمام، ثم اقتربت منا، لم نجلس، جاء دوري، رحت أدور حول ضريح الكاظم،

بخشوع لم أعرفه مطلقا، كنت أريد أن أبكي، لا سبب لبكائي، نظرت– عن بعد– إلى فاطمة، ثم نظرت إلى ابنتها كوكب وصغيرها داود:

–هذه عائلتي وأنا سعيد بها.

(10)

بعد ساعة ونصف رجعنا، دخلت بيتي، مزحوم إلى عنقي بالسعادة ، رميت جسمي المتعب على فراشي الموجش، أيقنت أن كل شيء في حياتي صار– منذ مساء اليوم– لا يشبه ما كان عليه طوال عمري..

كنت أفكر في (عائلتي) كوكب وفاطمة، لست أدرى– صراحة.

–من ستكون زوجتي؟

لكنني تركت أبواب البيت كلها مفتوحة أمام خصاص النوافذ، نوافذها. نمت عاريا– تماما– تحت ضوء خافت، لا شيء في رأسي إلا فكرة واحدة: أن تراني كما أنا..

في الصباح، تزوجت فاطمة.

صار داود ابني، لم أفكر فيه مطلقا، وصارت كوكب ابنتي، والصبر عليها صار معجزتي

في الصباح، تزوجت فاطمة.

وقررت– فجأة– أن أكون شريفا!

تلك نهاية القصة، وأعتقد أنني– هكذا– جعلتها صالحة للمشي كما تريد الرقابة العربية، وأن نهايرة القصة– كما قرأتم– لا غبار عليهـــا، لكـــنني اعترف أن هذه القصة التي عنوانها (خصاص النوافذ) والتي كتبتها بنفسي على امتداد الشهور الثلاثة المنصرمة من حياتي التي سرقت مني نصـــف أعصابي، وسلبت من كرياتي البيض ما يزيد على سلبها مـــن كريـــاتي الحمر، أعترف، أن هذه القصة لم تكن كذلك أبدا..

إن نهايتها الحقيقية– يا سادتي القراء– لا يمكـــن أن تظهـــر منشـــورة في كتاب، ولن يستطيع أي رئيس تحرير– مهمـــا كـــان ذكيـــا وشـــجاعا ومستقلا– أن يوافق على إجازتها..

لهذا أسأل نفسي – دائما– "لماذا قررت نشرها مبتورة من أخط أجزائها" وأنا أول من يعرف سرها؟!

لماذا؟!

أنا مؤمن– هذا هو السبب– أن القراء بعد هذه الخاتمة يعرفون النهايـــة جيدا.

***

ابتعد أيها السيد المهذب

ثلاثة بيوت، في زقاق واحد، كانت فارغة، لا ندري من يملكه، لم نسأل عمن عافها، ولم نتقترب منه رغم أن ما يزيد علي عشرات السنوات مرت، ونحن نعيش قربها.

كنا نلعب على امتداد المحلة – نحن أطفاله، وأعجب من فيها– لكننا لم نقترب من تلك البيوت– أبدا– ولم نفكر مرة واحدة في كسر أبوبها أو الدخول في دهاليزها وكشف السر الذي دام في عقولنا أكثر من عشرة أعوام.

لماذا؟

قال أبي قبل موته بشهر واحد "إن النفس أمارة بالسوء، وعليك أن تصبر ما في نفسك يا بني".. سألته عن تلك البيوت الثلاثة، لماذا هي فارغة يا أبي؟

راح يبكي، هي مرة واحد في حياته كلها أن أراه يذرف الدموع– كنت قاسيا– سألته: لماذا هي فارغة يا أبي؟

لكنه– قبل موته بشهر واحد– قال لى: إني لن تعيش، هذه المحلة لن يعيش فيه من يسأل..

كان ينظر إلى ملامح وجهي، مساماته، جروح جبهتي، وانكسار أنفـــي، وهو يشهق ميتا:

– الحمد لله، كنت أحلم ذات يوم أ، يهبني الله نصف ما أنت عليه الآن.. ومات..

هل يدري هذا الرجل المقهور بم أوصاني وهو يموت؟

إنها بيوت ثلاثة، ليس بين الأول والثناي أو بين الثاي والثالث من بيوت أو دكاكين أو فراغ..كانت مربوطة ببعضها مثل حبات المسبحة..

أبوابها مغلقة، لم يفتحها أحد، لم نسمع أي هسيس فيها، ولم نفكر مطلقـــا في كشف سرها..

منذ جئنا، منذ بدأنا نفهم، علمونا كيف نبتعد عنها، كنا نلعـــب دون أن نفكر مرة واحدة، بما كان يدور حولنا، فقد قررنا – رغم طفولتنـــا– أن نردد ما يقوله أولياء أمورنا من راقب الناس مات هما ولم نراقـــب غـــير أنفسنا، تاركين البيوت وأسراراها، رحمة بأهلنا وحرصا علـــى طفولتنـــا وملاعبنا..

لكن وصية أبي وحدها هي التي أشعلت النار في بيوتن وأحرقت القناعـــة التي كانت أثمن كنوزنا..

– كنت أحلم أن يهبني الله نصف ما أنت عليه الآن.

في ليلة– من الصعب نسيانه– غادرني وسواس طفولتي، كنت أنظر صوب النجوم، سماء شاسعة بلاحدود، هل كان الله يحدق في وجهي؟

بين دارنا والبيوت الثلاثة، مسافة لا تزيد على خمسة أمتار، كنا أقرب العوائل من تلك البيوت، كنا أقرب الناس إلى التهلكة.

رفعت جسمي عن الفراش، كان الصيف يقتل نصف أعصابي، مشيت على امتداد سطح دارنا، وأنا لا أفكر بشيء..

كان وسواس طفولتي قد غادرني.

بدأت أدخل في الصبا والمراهقة المثيرة.

رميت عيني على بيوت الجيران، هذا منزل السيد منير، أكثر ظلمة من بقية المنازل.. وذاك بيت المحامي جبار، أضعف خلق الله في المحلة.. على شمال دارنا رأيت عائلة المعلم سليم، الذي يعاني من القرحة والربو وتخثر الدم، ثم انزلقت أجفاني على أول بيت من تلك البيوت الفارغة.

لا أدري كم الساعة.

كان الذي يتسرب في عروق بغداد، كانت بغداد نائمة في عروق الليل، كنت وحدي، أنا وطفولتي نغادر النوم والليل ونحدق في هذا اللغز دام عشرة أعوام بلا جوب.

فجأة، مددت رأسي حتى أصدق ما رأيت.

ربما كنت أحلم، وأتوهم، أنا صبي حالم مزحوم بأوهامي، لكن وسواس طفولتي كان قد غادرني فعلا، فقد بدأت أرى!

في البداية، كنت أصغي لهذا الصوت الذي يأتي مخنوقا مرعوبا، إنسان أم كلب، لم أكن أدري، شيء يشبه البكاء، التوسل، النحيب، يدخل في غضاريف جسمي، أختنق معه، وأخاف مثله، كنت أريد أن تشاركني أمي أو أخي الذي يكبرني، عساهما يفسران لي حقيقة ما كنت أحس به.

هذا الصوت يتسلل مثل إبرة، يصعد من بين فراغات البيوت الثلاث، يقشعر جلدي، لكن وسواس طفولتي كان قد غادرني إلى الأبد..

كنت أفكر..

تلك كانت بداية المجزرة، إنني بدأت أفكر، وأصغي، وأرى.

بين سطوح محلتنا القديمة، كنا نلعب ونقفز دون خوف من الجيران، كنا عائلة واحدة، تنام في عشرات البيوت، ابن السيد عثمان يسرح في المطرب غازي، أولاد الحاج مهدي يمرحون ويكسرون زجاج منزل البزاز "أبو عمر" ربما يغضب حسون، أو يلعن أجدادنا، ربما يزعل عثمان أو غازي أو المحامي، لكن هذه العائلة الكبيرة لم تنكسر، لم تتفرق، ولم تبتعد عصونها وفروعها عن ذاك الجذر المتين الممتد في عروق الماضي، عبر مئات السنين.

في تلك الليلة– وأنا أصغي إلى ذاك الصوت المخنوق– كن أفكر في سكان المحلة كلهم، هل تراهم يعرفون ما يجرى في هذه البيوت

الفارغة؟.. السطوح كلها نائمة، ليس من رأسي معلق مثل رأسي، من يري أو يصغي أو يفكر أو يعيش وسواسي؟

كنت أقول– مخنوقا، مغلوبا على أمري:

– هيا، اقفز، ليس بينك وبين اكتشاف الحقيقة سوى قفزة واحدة.

أبدا، إنها مسافة أبعد من أرض الله، لا قياس بعدها سوى الجنون، كيف أرمي نفسي إلى هذا الجحيم، اللغز الذي لايسأل عنه أحد ولا يقترب منه أحد؟ لماذا أنا؟!

هاهي المحلة كلها، نائمة، تحلم بالطعام والنساء والخمر والشمس والسفر، لماذا أنا وحدي من يفكر بهذه البيوت السردابية التي لا سطوح عليها سوى ركان من زجاج مكسور؟!

سبحان الله، كنت في طفولتي– بما كانت عليه أمي– أريد أن أعرف! ليوم، سر هذا الخراب الذي حل أمام عقلي..

كيف صارت هذه البيوت الثلاثة محرمة على اهل المحلة، منذ متى، ولماذا منعونا من الاقتراب– حتى– من طابوقها ومن أبوابها ومن شناشيلها الملونة بالرمادي والماروني الغامق والأزرق المائل إلى السواد؟

كنا نملك المحلة كلها.. نحن أطفالها، ندخل أو نخرج، لا ندري بيت من ولا غرفة من ولا شباك من، هذا الذي كان نائما أو غافيا أو حالما أو مخبولا أو غاضبا أو كريما.

لا ندري، فقد علومنا منذ نعومة أظافرنا، أن النبي محمد، قال في حضـــرة أهلنا،

إن الجار الأول مقدس، والثاني مقدس، والثالث قريب من القلب والرابع بعيد عن النار والخامس محبوب إذا أذنب، والجـــار الســـادس مرغـــوب الطالع حتى إن أخطأ، أما السابع فهو أكثرهم محبة وإحساسا بما نفكـــر فيه.

إذن، لماذا أخاف، والبيوت الثلاثة التي تلاصق دارنا، أولها مقدس، وثانيها مقدس–أيضا– أما ثالثها فهو قريب من القلـــب كمـــا أراد الـــنبي..؟

– لماذا الخوف؟ ليس بينك وبين الجار الأول، سوى سائر قصير، مجـــرد متر واحد وترى بعده ما تريد.

لم أكن أعرف الوقت، كنا بعد منتصف الليل، ربما كان الليل قد غادرنـــا ولم يبقَ منه سوى ذيل جلبابه الأسود الجميل.

قفزت من سطح دارنا، إلى البيت الفارغ الذي لم يقتـــرب منـــه أحـــد، سنوات وهذا المكان الغريب مجرد "عفريت" ينسجه الخيال.

قالت: سأدخل البيت وأرى..

كنت أسمع صوت أبناء المحلة يصفقون لي، وحدي من كسر الطوق بـــين السؤال وبين الجواب.. وحدي من أعطاهم هذا المفتاح، علهم يـــدخلون السر الذي دام عشرة أعوام أو تزيد.

أيها الرب العالي..

إنني أدخل هذا البيت..

كنت أريد رحمة الله، فقد أرهقني قلبي، وهو يميل ذات اليسار وذات اليمين، ينبض بقوة، كأنني سأموت.

نزلت على سطح البيت الفارغ، كان الصوت المخنوق يقترب من وجداني، كان باب السطح مفتوحا.. نظرت إلى سلالم الطابق العلوي، كان الضوء يتسلل من أسفل البيت، ماذا دهاني؟ لماذا أدخل، ماذا سأرى؟

إنه مجرد بيت فارغ، ربما نامت فيه القطط والشبعانة، أو احتفلت بين جدرانه كلاب المحلة؟

عيب كبير أنني لا أشعر بالعيب، وأنا وحدي دون أطفال المحلة، بل دون رجالها، من يكسر هذا الطوق.. ويفكر في أسرار البيوت..

كنت أحدق– وأنا واقف عند باب السطح – إلى سلالم الطابق العالي، لا صوت هناك ولا صدى، كل شيء سمعته، كان قد اختفى، ثمة بين الشقوق، صرصار يمرح، ليس في صوته سوى ذكريات طفولتي.

كنت أقترب، وأبتعد، ثم أبتعد خطوة وأقترب.. يطاردني الخوف مرة وتمزقني وصية أبي عشرات المرات.

– كنت أحلم أن يهبني الله نصف ما أننت عليه!

لماذا أكرر هذا الكلام العسير؟! أنا مجرد صبي نـــزق، فـــارق الطفولـــة وهسيسها ذات صدفة، لماذا زج بي والدي في هذا "القـــرف" الفضـــولي الذي "دغدغني" وصار يخدعني، ثم رماني إلى هذا الوجع الذي لا يفهمـــه حتى الأنبياء؟!

نزلت سلالم البيت الفارغ.

كان عمري يتدحرج أمام عيني، أمسكه لئلا يتناثر فوق هذه البكتريا التي أشم روائحها، يطاردني وجه أبي، ربما كان يحرسني من شيطاني وأســـئلتي "ابتعد أيها السيد المهذب" قلت في قرارة نفسي "ابتعـــد أيهـــا الرجـــل العاقل".. لكن الوجه صار قاب قوسين من عنقي، يـــراقبني، يتســـلل في غضاريفي ويسكن تحت جلدي لئلا أهرب من بين ضوء خافت، يظهـــر فجاة، ثم يختفي بسرعة، ليس بين نوره وانطفأ وجهه إلا مسافة إحســـاس باهر، ربما كانت– مثل أبناء محلتي– أتوهم هذه القلاقة الخطرة بـــين مـــا أرى وبين ما أريد أن أرى.

تحت السلالم، لم يكن ثمة إلا نور إحساسي، يباغتني، يســـحرني، يغـــريني بالدخول إلى هذا البيت الذي يلاصق أعمارنا ليلة بعد ليلة، كنت أريـــد الوصول إلى شيء يفسر لي سر هذه البيـــوت المهملـــة.. وكـــان لي– وحدي– معرفة السر كله.

بهدوء يشبه الخوف، أو هو خوف يشبه الشجاعة، وربما كانت شـــجاعة تشبه إحساس لص جائع، أو هي سرقة تشبه الانتحار.. كنت قد وصلت أسفل البيت.

نظرت إلى السماء من فتحة البيت المربعة، كان الله يهمس في وجداني:

– ولا تلقوا بأيديك إلى التهلكة.

قررت الصعود ثانية، والرجوع إلى بيتي، لكن الوقت الذي كان ملـــك يدي– فجأة..

– صار من نصيب غيري..

غريب، إنني حتى تلك الساعة، مازلت واقفا أحدق في هذا الرعب الذي طوقني وراح يسخر مني، يهزأ من وصية أبي التي انقلبـــت نـــارا تحـــرق أعصابي واسمي وبقية عمر:

– من المؤسف أن يموت المرء في هذه السن المبكرة.

كانت تلك واحدة من حناجرهم، لم أسمع أي شيء.. رموني في مكـــان لا أعرف مساحته، ولم أعرف المسافة بينه وبين بيتي، كلمة أخيرة سمعتها وأنا مهشم الضلوع، رددها عملاق كان يرفعني من شعر رأسي، ويحطني فوق أرض المكان الذي رموني إليه، كان يقول:

– إنه ابن الحاج عمران، أي تشابه عجيب؟!

كنت أعرف هذا الصوت سمعته مئات المرات، لكـــنني ذهبـــت في نـــوم مريض لا أعرف الوقت الذي دام فوق جسدي وأنا محطم في كل جـــزء من عظامي وذاكرتي وشاريين رأسي.

صحوت، ربما بعد عام أو عامين..

صحوت، ربما بعد يوم أو يومين، لسلت أدري..

ثيابي مبللة، وشيء مثل الدم، متخثر على مساسمات يدي ومـــؤخرتي، لم يكن من ضوء، كنت أرى بأصابعي جدران المكان الذي قتلوني فيه..

هي غرفة طولها أصغر من مترين، بابها حديد، يدخل الهواء من تحتها حيث لا نافذة أو ثقب في الجدران، ليس من صـــوت بشـــري أو حيـــواني أو حشري، لا شيء على الإطلاقّ!

كنت أحب صبية– في المحلة– اسمها عفاف.

من كان يدري– على امتداد هذا الكون– أن عفاف– تلـــك البنـــت الحلوة– وحدها التي أنقذتني من الموت.. المحلة كلها تعشق ابنتها عفاف، الفتيان– حتى من محلات مجاورة– يتسللون إلى زقاقانا، إذا رأى أحـــدهم نصف ابتسامة أو نصف نظرة من عفاف ينقل نفسه فورا إلى رتبة عاشق، ويبدأ في كتابة الشعر أو قراءة آلام فارتر.

في ذلك القبو لم يكن من نور سوى نورها، عفاف، أرجع صوب ملامحها، أدرس أيام خجلي، وأرسم في زاوية من آلامي كيف أنها قالت ذات مرة: أنت أحسن أبناء المحلة.

– لماذا يا عفاف؟

قالت، وأنا أهتز في حضرتها:

– كلامك نظيف، ثيابك نظيفة.

عمرها صيف وشتاء، تكرر اثنتي عشرة مرة، كان عمري، إذا مارأيتها تبتسم، يزداد سنة في الربيع، أو عامين إذا ما نطقت في الخريف، كنت أحلم بها وأعيش على سر كبير– بين أولاد محلتي.

– إنها قالت:

– أنت أحسن أبناء المحلة.

كنت أحسن أبناء المحلة– كما قالت– كيف أمد يدي عبر هذا الهلاك وأسحبها إلى هذا القبر المجرم، حتى ترى بنفسها ماذا فعل الكلام النظيف والثياب النظيفة؟

عفاف:

بيني وبين المحلة– ربما– جدار واحد، ربما سرداب واحد، ربما كان بيني وبين المحلة، محلة ثانية، أكاد لا أصدق ما جرى، فقد علموني في يومين

كيف أخاف، ثم كيف أذبل من الخوف، ثم، كيف أرتعش خوفا، حتى صرت أخاف من الخوف.. ثم زاحمني الخوف وتفسخ جثة في عروقي، وبدأت أصحو من رعبهم وأصحو من تعذيبهم.. أصحو.. أصحو.. وافكر..

تلك –كما هي النهاية –كانت البداية – أيضا.

الآن..

بدأت أفهم سر البيوت الثلاثة، لم تكن فارغة كما يتوهم النساء والعجائز والرجال في هذا الزقاق الذي يلاصق عشرات الأزقة ولا يشبه أي واحد منها..

آن أوان السؤال عمن يملكها.

أزف الوقت للاقتراب منها والدخول إليها، عساهم ينقذون ما بقي من نبض في جسدي، إلى تكفي تلك السنوات العشر، المظلمة على أهل المحلة، لا نور ولا زجاج ولا ثغرة ضوء، تلك البيوت قطعت نصف المحلة عن نصفها الثاني، وصرنا نعيش بين النصفين بإحساس مقطوع، يزاحمنا الرعب في النصف الأول ونخاف اللعب في النصف الثاني، كأننا نمضي الوقت ونعيش بأية حالة، حتى يأتي زمان موتنا فنموت!

كنت أعرف أنني لن أعيش.

الحقيقة كان يعرفها أبي، هو الذي بكى على مصيري قبل أن يحضر هـــذا المصير.

منذ أن غادرن وسواس طفولتي، وأنا ألتهم عمري أجـــزاء وأرميـــه إلى شيخوخة جاءت قبل موعدها، مبكرة جدا.

دخل الشتاء من ثغور القبو، وحدي في هذا الرمس الذي انزلقت إليـــه، أين أبناء محلتي؟! ألا يسأل أي واحد منه، ماذا جرى؟! لماذا انقطع المحامي جبار– كما هي عادته– عن السؤال؟

ماذا حل بنا؟! أين الحاج مهدي، أين البزاز (أبو عمر)؟!

هل كف المطرب غازي عن الغناء؟ أريد أن أسمع صـــوت إنســـان.. أي كائن، مهما كان سافلا أو تافها أو رديئا.. مجرد صوت يجعلني أشـــعر أن الكرة الأرضية مازالت تدور.

أين السيد عثمان، أو حسون؟! أين المعلم سليم، أم تراه مات من القرحة والدم المتخثربين الضلووع؟!

هل يدري جارنا منير أن ألف ثريا في متر واحد هو مترلـــه المظلـــم إذا ماقيس بهذا المكان؟

خرجت من الصبا والمراهقة المثيرة، ماشأني بهذه المساحة القصيرة من هذا العالم الشاسع، طابوق وأسمنت وجص وحديد، مجرد بيت بـــين ملايـــين

البيوت، لماذا أنا وحدي من يدخل المجزرة، أعطي عنقي إلى السكين وأحركها يمينا وشمالا فوق دمي ولحمي.

من يفعل ما فعل سوى المجانين؟

هل كن سوى مخبول يمشي إلى التهلكة بقناعة الأنبياء.. أي خيال جامح، غامض هذا الذي يصنعن وجه عفاف بهذه الدقة؟ مساماتها لا نقص فيها، شعرها، رقصة عينيها، غصون جذعها البهي، أي سحر يمر من عروق الجدران، يتسرب من تحت الأرض، ينقذني من هذا اليأس الذي يشبه المشنقة؟

وحدها، عفاف من ساعدني على البقاء حيا.

قلت: أعيش يوما آخر عساني أراها.

فات الوقت، قلت: أعيش أسبوعا آخر حتى أراها.

كان الوقت خارج صبري، كان صبري خارج الوقت، وأنا أردد مثل ببغاء:

–أعيش شهرا ثانيا، حتما سأراها وأحكي لها عن هذا القبو الظالم الذي رموني إليه..كيف يعيش قلبي بين هذا الموت؟

كنت أحفر ثقبا في الجدار، تمكنت بعد وقت أمضيته في بحر خيالاتي من جمع حفنة من أسمنت، كم كانت غالية على نفسي، تلك القطع الناعمة التي كومتها تحت سقف يدي.

كنت أثقب حفرة في عمري، راح زمان صباي، وأنا أبكي علـــى زقـــاق عشت فيه شهيقا وأحلام وحبا وخجلا، من يتذكرني الآن؟ من يسأل عن مكاني؟

كان الجدار يهزأ من طفولتي، من حفنة أسمنت كومتـــها تحـــت ســـقف أصابعي، هل يخفي هذا القبو إنساني غيري؟

فجأة، ذهبت إلى مشنقتي، أختار قتل ما بقي مني، وقررت أن أصرخ..

نعم..

كنت أصرخ، هذا وجعي، وتلك نهايتي، من يسمعني في هذا الســـرداب؟ جزء من أرض مخنوف، تحت جزء آخر، سلسلة من ظلام، تنمو إلى ظلمة أعمق، لا أرى – هنا – سوى شعاع هواجسي وعفاف، لا أسمـــع غـــير نبض قلبي ونبض عفاف.. ليس من رائحة سوى ندي جسمها تخفف من رائحة جسدي الذي أشمه رغم أنفي حتى أقنع نفسي أنني مازلت أحيا.

فجأة..

رأيت باب قبري مفتوحا، ليس من قاتل عند نهايته، ولم يكن ثمة جـــلاد عند بدايته.. كان الباب يقول لي:

–اخرج، واحذر أن تكررها مرتين.

لم أصدق هذا الضوء الذي تسرب ناعما خفيفا إلى مكاني، كنت مزحوما بالخوف، أن يكون هذا النعيم مجرد جزء من كابوس آخر::

– اخرج، أيها الطفل العنيدن ليس هذا مكان الصبا ولامخدع المراهقة. رأيت نفسي أمشي..

سبحان الله، كيف يمشي جسدي على هذه النار وهو مبلل بالدموع والرعب والذكريات.

بعد نصف ساعة، كنت في المحلة..

مازال صوت أبي يهدم جدران الزقاق وجدران قلبي وهو يصرخ من نهايات السماء: هذه المحلة، لن يعيش فيها من يسأل.

لن أسأل، يكفيني ما رأيت..

رآن المعلم سليم، قال بصوته المريض:

– نحمد الله على سلامتك.. لا تكررها ثانية يا بني وتغيب عنا، فكر مرتين قبل أن تدخل مترلا غير مترلك.

ثم جاءني ألم..

رب غازي، لست أدري ماذا أراد بقوله:

– إنه ذنب الحاج عمران، كان عليه أن يحفظك من الموت.

– تعلم منذ الآن، أن البيت المظلم يرحمنا من الزوار.. نحمد الله أنك مازلت حيا. كلهم يعرفون الحكاية، لماذا قتلوني بالسكوت إذن؟!

سبحان الله كيف يعيش الإنسان ميتا طوال حياته؟

عند باب البيت، بيتي، رأيت عفاف مددت أصابعي إلى النقاء والطفولة والفرح، كنت أبكي.. أبكي فعلا، وأنا أمد أصابعي نحوها، كنت أنتظر هذه الدقيقة من عمر الزمان، أن تشابك مساماتها مسامات يدي.. كنت أريد أن يغوص نور عيني بنورها..

كنت أحلم أن يتسرب كلام حنجرتي بكلامها.. أرتعش خجلا وحبا وأنا أفكر ماذا أقول؟

لكنني لم أستطع الوصول إلى أصابعها، ولم أعد أرى لون عينيها، لم أنطق بحرف واحد في حضرتها، كنت أرتعش خجلا وحبا، وموتا، وأنا أسقط قربها..

إذن قتلوني، وأخرجوني من قبر، حتى أموت بين أفراد عائلتي وأبناء محلتي.. أراهم الآن يدورون حولي، المحامي جبار، السيد عثمان، الحاج مهدي وحسون والبزاز أبو عمر.. ينظرون إلى موتي بصمت داعر، حتى جاءت أمي بينهم..

ما إن نظرت أمي إلى جسدي– وأنا أموت– حتى أدركت سر أبي، فقد راح صوت أمي يذبح السماء والزقاق والناس، وهي تقول مخبولة دون أن ترى ما يدور:

–ألا يكف رجل واحد من عائلة واحدة، ألا يكفي رجل واحد من بيت واحد؟

سمعت المحامي يقول:

– كنا نعلم أن الحاج عمران خلف رجلا مثله..

قال حسون وهو يبكي:

– ترى، كم بقي من الرجال في هذه المحلة؟

مازال صوت أمي يلامس روحي وهي تصرخ في الوجوه:

– ألا يكفي رجل واحد من عائلة واحدة؟

هو الذي قال لي: أنت لن تعيش.

هو الذي بكى:

– هذه المحلة لن يعيش فيها من يسأل.

كنت أموت هادئا، رغم صراخ أمي، فقد رأيت عفاف تنقل عينيها من جسدي إلى البيوت الثلاثة، ومن البيوت الثلاثة إلى جسدي..

كنت أموت هادئا.

فقد تركت خلفي من يسأل.. من يدري، ربما سيأتي الحل يوما على يد النساء؟

من إصدارات عبد الستار ناصر

1- الرغبة في وقت متأخر / قصص 1969/ بغداد.
2- تلك الشمس كن أحبها / رواية 1971/ بغداد/ منشورات الكلمة.
3- موجز حياة شريف نادر / قصص 1975/ دمشق/ اتحاد الكتاب العرب.
4- لا تسرق الوردة رجاء / قصص 1978/ دمشق/ الكتاب العرب.
5- الحب رميا بالرصاص / قصص 1985/ القاهرة / الهيئة المصرية للكتاب.
6- مطر تحت الشمس، قصص 1986 القاهرة / الهيئة المصرية للكتاب.
7- لا عشاء بعد الليلة / قصص 1987 القاهرة / الهيئة المصرية للكتاب.
8- امرأة في البريد / قصص 1990 / بغداد/ وزارة الثقافة.
9- شمبارة الميمونة / قصص 1993 بغداد/ دار الأمد.
10- من أي بلاد أتيت / قصص 1999/ بغداد، دار الشئون الثقافية العامة.
11- نصف الأحزان / رواية 2000/ بيروت / دار الأدب.
12- الكواش / قصص 2000/ بيروت/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
13- بعد خراب البصرة / قصص 2000/ بيروت / المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
14- حياتي في قصص / سيرة روائية 2001/ بيروت / المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
15- جمهورية العوانس/ مسرحيات 2001/ القاهرة / وكالة الصحافة العربية.
16- مختارات قصصية/ القاهرة2001/ وكالة الصحافة العربية.
17- سوق السراي/ كتابات في النقد 2002/ بيروت/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

الفهرس

ما يشبه المقدمة 5

لابد من مطر..... 7

اليوم الذي سيرحل فيه البط!.....17

من يطرق الباب؟.....23

ثلاثية الولادة..... 29

ثلاثية الفراق..... 33

ثلاثية الموت..... 37

الأعور..... 41

السيد دعبول..... 65

امرأة من سيوبارو..... 75

المهم ليس هذا فقط..... 81

في الطريق إليّ..... 87

طعم الصبا..... 93

قصة بثلاثة أخطاء..... 129

قطار السمك..... 131

جريمة محترمة جدا..... 137

نساء من؟..... 151

خصاص النوافذ..... 159

ابتعد أيها السيد المهذب..... 187

من إصدارات عبدالستار ناصر..... 205